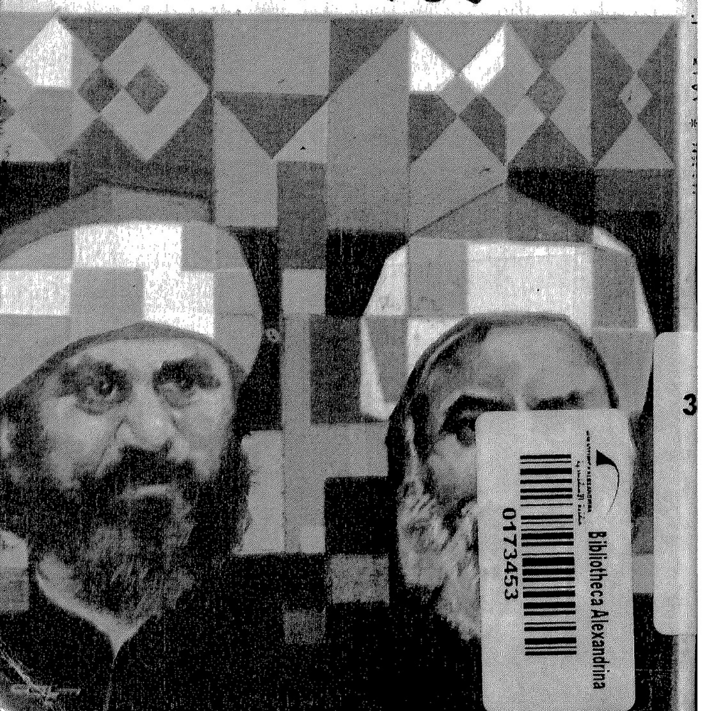
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

الأفغانى ومحمد عبده

و.س. بلنت ● د. على شلش



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢١ - ربيع الثانى ١٤٠٦ - يناير ١٩٨٦

NO . 421 - january 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد

الهلال فى ج
الخارج بشيك
البريد المسجل

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



تأليف
و. س. بلنت

ترجمة
د. على شلش

دار الهلال

مقدمـــــــة

على طول التاريخ الحديث اجتذب الوطن العربى كثيرين من الاوربيين الذين ساحوا فى ربوعه ، أو غامروا بين اهله ، أو تعلقوا بتراثه .

ومن هؤلاء رجل انجليزى توسع فى السياحة فى ربوع الوطن العربى وعشق بواديه وحواضره ، وصادق الكثيرين من بسطائه وكبرائه ، ونذر نفسه للدفاع عن حرية شعوبه واستقلالها ، وتبنى الدعوة الى توحيد صفوف المسلمين لمجابهة الزحف الأوربى المسيحى على بلاد الاسلام والمسلمين ، ابتداء من الهند الى الجزائر ، دون أن يشغله ذلك عن الدفاع - أيضا - عن حرية ايرلندا الكاثوليكية وحقها فى الاستقلال .

كان الرجل من أوائل أصحاب فكرة إعادة الخلافة الاسلامية الى العرب واستقلالهم عن الترك ، وكان أول انجليزى ناصر الحركة الوطنية فى مصر ، وساندها منذ أواخر عهد اسماعيل حتى نشوب ثورة ١٩١٩ ، وعرف رجالها معرفة شخصية ، وكان بيته فى مصر وبيوته فى انجلترا مزارا ومرجعا ومقاما للكثير من الشخصيات التى ارتبطت بهذه الحركة مثل الأفغانى وعرابى والبارودى ومحمد عبده وعبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد . بل تكفل بنفقات الدفاع عن عرابى عند محاكمته بعد الاحتلال الانجليزى لمصر . وأصدر فى شيخوخته مجلة فى لندن للدفاع عن مصر .

كان هذا الرجل ايضا فنانا مصورا ونحاتا وشاعرا ، أشبه بابن بطوطة فى أسفاره المتعددة وحبه لتسجيل خواطره ومشاهداته . وكان يتميز ، فوق هذا كله ، بحاسة المؤرخ . وتعد كتبه من هذه الناحية مرجعا لاغنى عنه ، لا فى تاريخ الوطن العربى فحسب وإنما فى تطوره السياسى و الجغرافى والعمرانى ايضا .

اسمه بالكامل : ويلفرد سكاون بلنت . وشهرته « بلنت » بكسر الباء وفتح اللام . وقد عاش ٨٢ عاما (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) قضى نحو نصفها فى بلاد المسلمين التى نكبت باحتلال قومه .

وقد سجل بلنت فى اربعة من كتبه الضخمة قصة علاقته بالافغانى وتلميذه محمد عبده ، وهى قصة لم تظهر تفاصيلها بالعربية من قبل . ومع أن كتابه عن احتلال الانجليز لمصر قد ترجم الى العربية فيبدو ان كتبه الأخرى لم يهتم بها احد ممن كتبوا تاريخ الأفغانى وعبده ، فضلا عن انه من الصعب اليوم ترجمتها كاملة ، لا لأنها كتب ضخمة ، ولكن لانها مليئة بأحداث وشخصيات أخرى انجليزية وهندية وغيرها مما لايهمنا . ولكنى وجدت من الأنسب أن أنقل مايخص الافغانى ومحمد عبده فى كتب بلنت الأربعة ، وان أشرح مايدعو الى الشرح داخل أقواس بدلا من الهوامش ـ قدر الامكان ـ حتى تسهل القراءة والمتابعة . أما هذه الكتب الاربعة فهى على الترتيب :

١ ـ التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر .

٢ ـ الهند فى عهد ريبون .

٣ ـ جوردون فى الخرطوم .

٤ ـ يومياتى : جزءان .

وقد كان بلنت نفسه فى هذه الكتب اقرب الى المؤرخين العرب القدماء ، ولاسيما عبد الرحمن الجبرتى ، فى تسجيله للتاريخ . فهو يعتمد على اليوميات . يسجلها أولا بأول ، ويوما بعد يوم . وهو ايضا يدون يومياته بتلقائية وعفوية وصحتين . وليس من المستبعد أن يكون قد تأثر بالجبرتى أو اعجب بمنهجه . فقد اشار

اليه فى إحدى يومياته فى القاهرة قبل أن يضع كتبه هذه على الورق . وكان قد قرأ له كتابه الكبير « عجائب الاثار » مترجما الى الانجليزية . وأبدى إعجابه به .

غير ان كتب بلنت هذه تشكل فى الحقيقة مادة فى غاية الاهمية بالنسبة لتاريخ الأفغانى ومحمد عبده ، وهى مادة ظلت مجهولة كل هاتيك السنين ، بالرغم من محاولات حافظ عوض ومحمد امين حسونة لنقل بعضها أو الاشارة اليه خلال الثلاثينات ، وبالرغم أيضا من ترجمة كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » الذى طبعته صحيفة « البلاغ » مفرقا ثم جمع فى كتاب من ترجمة عبد اللطيف حمزة ، فى حين لم يترجم أحد كتابه الآخر « جوردون فى الخرطوم » الذى يتمم زميله ويضم عددا لايستهان به من الوثائق المهمة لفترة احتلال الانجليز مصر من ١٨٨٢ الى ١٨٨٥ . وقد لاحظت فيما ترجم من يوميات بلنت ـ فى صحيفة كوكب الشرق ١٩٣٢ ومجلة الرسالة ١٩٣٩ ـ انه يفتقر الى الكثير من الدقة والامانة فى النقل والتعبير ، وهذا ماحاولت ان اتحاشاه قدر طاقتى وامكاناتى .

واعتقد أن كتابة تاريخ الافغانى وتلميذه محمد عبده وفهم حياتهما ونضالهما لايتمان دون الرجوع الى هذه المادة التى تناثرت فى كتب بلنت السابقة .

بهذا كله أرجو أن أكون قد وضعت امام المؤرخين والدارسين للافغانى وعبده مادة لاغنى عنها

جمال الدين الأفغانى

المؤسس الحقيقى لحركة الاصلاح الدينى المستنيـــر فى مصر

جاءت أول اشارة للأفغانى عند بلنت فى كتابه المشهور « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » فقد قدم له سيرة مختصرة . قال :

« من الغريب ان المؤسس الحقيقى لحركة الاصلاح الدينى المستنير بين علماء الدين فى القاهرة لم يكن عربيا ولامصريا ، ولاعثمانيا ، وانما كان رجلا عبقريا بريا هو الشيخ جمال الدين الافغانى الذى شهدت أسيا الوسطى تجربته الوحيدة فى العالم قبل حضوره الى مصر ، ولد فى افغانستان ، وتلقى تعليمه الدينى فى بخارى . وفى تلك المنطقة النائية ، ودون آية صلة فيما يبدو بأى معلم من معلمى المراكز الأكثر تمدنا فى الفكر الاسلامى قام بتطوير الأفكار التى ترتبط الآن باسمه من خلال دراسته وتأملاته الخاصة .

«وتكمن أصالة جمال الدين فى أنه سعى الى توجيه الثقافة الدينية فى البلاد التى زارها نحو ضرورة إعادة النظر فى الوضع الاسلامى ككل . ودعا الى ضرورة اعادة النظر ايضا فى اقامة حركة عقلية خارجية تتفق مع المعرفة الحديثة بدلا من التعلق بالماضى وحده . ومكنته معرفته الوثيقة بالقرآن والسنة من توضيح أن شريعة الاسلام اذا فسرت ونوقشت على أساس القرآن والسنة فهى قادرة عند ذاك على استيعاب اكثر التطورات تحررا ، وان هذه الشريعة لايعارضها اى تغيير صالح فى الحقيقة .

« لقد أتم دراساته سنة ١٨٧٠ م وكان فى سن الثانية والثلاثين عند ذاك . فسافر الى الهند حتى وصل الى بومباى . ثم حج الى مكة ، ثم جاء الى القاهرة وتوجه منها الى القسطنطينية . ولم يمكث فى زيارته الأولى للقاهرة اكثر من ٤٠ يوما ، ولكنه تعرف خلالها الى بعض طلاب الازهر ، ووضع حجر الأساس للتعاليم التى طورها بعد ذلك وفى القسطنطينية ظهرت فصاحته وعلمه . وعين فى « آنجمان العلم » (دار العلوم) التى كان يحاضر فيها فى كل الموضوعات . فقد كانت معرفته شاملة . وكان يتمتع بحضور البديهة وسرعتها ، وكذلك بذاكرة مدهشة ، حتى لقد قيل عنه آنه يستطيع ان يقرأ كتابا فى آى موضوع فيحفظه من القراءة الأولى كما لوكان نقش على لوح عقله الى الأبد . وقد بدأ بتعليم النحو والعلوم ثم الفلسفة والدين وكون لنفسه معجبين وآتباعا .

« ومع ذلك فمن الغريب آن روح النقد الجديدة فى الاسلام العربى بدأت ـ كما حدث ـ على يدى رجل تعلم فى بلاد غير متقدمة كالتى فى آسيا الوسطى وفى جامعة نائية للغاية .

« لم يكن عمله فى القسطنطينية منتظما ولكنه كان مرموقا وان لم يدم طويلا »

وروى بلنت بعد ذلك ماحدث للأفغانى حين تألب عليه شيخ الاسلام فى العاصمة العثمانية فنصحه البعض بالعودة الى مصر . وقد روى ذلك بصورة قريبة جدا من الصورة المشهورة التى سبق ان رواها الشيخ محمد عبده فى تقديمه لترجمة « الرد على الدهريين » عام ١٨٨٦ . ومن المرجح ان بلنت قد رجع الى هذه المقدمة كما رجع الى الافغانى نفسه وتلميذه محمد عبده . فيما عدا إشارته الى زيارة الأفغانى للولايات المتحدة ، وهى زيارة لم يشر اليها هو ولاأحد من تلاميذه أو كتاب سيرته . وقد اضاف بلنت بعد ذلك ان الأفغانى نقل لتلاميذه فى مصر « مستوعات المعرفة المنوعة التى يحملها ، وفعل ذلك دون تحفظ » كما آلهمهم « روحه النقدية وبعض شجاعته ... » وكانت الشجاعة فى الحقيقة أمرا

يحتاج اليه فى تلك الايام أى رجل يريد ان يتكلم فقد كمم الخديو اسماعيل الافواه فيما عدا الفلاحين واشد الناس فقرا فى المدن . اما اصحاب السلطة الدينية العليا وكبار المسئولين فقد صمتوا طويلا إزاء الظلم واختاوا عدم الكلام . وربما كانت معركة الافغانى فى القسطنطينية جواز مروره الى تسامح اسماعيل معه . وربما ظن اسماعيل آن الافغانى من ضعف الشأن بحيث لاينطق . وربما ظن ـ كما فعل عالى باشا وفؤاد باشا اللذان احتضنا الأفغانى فى تركيا ـ أنه سيحول التعاليم الجديدة الى اداة فى حربه الطويلة مع قناصل اوربا . واذا صح ذلك ـ كما يقول بلنت أيضا ـ فقد سمح لجمال الدين خلال السنوات الاخيرة من عهد اسماعيل بمواصلة محاضراته . ولم يقبض عليه الا حين تولى الحكم توفيق ورسخت المراقبة المالية الثنائية الانجلوفرنسية . وتم ذلك بناء على أمر ادارى ، وأرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفى على الفور .

ومع ان بلنت قد جانبه الصواب فى قوله ان الافغانى ارسل الى الاسكندرية ، والصحيح انه ارسل الى السويس ، فقد اضاف ـ الى ماسبق ـ ان الافغانى خلف وراءه فى مصر ماسماه « حزب الاصلاح الحر » الذى قادة محمد عبده ، وانه قضى بعد ذلك سنتين متجولا فى الهند حتى ذهب الى امريكا ، ولكن الافغانى لم يتجول فى الهند كما ذكر بلنت . فقد كانت تنقلاته تتم بناء على رغبة السلطات الانجليزية هناك ، فضلا عن أن ذهابه الى أمريكا أمر لم يحدث ، والأدلة كثيرة لأنه مرَّ بمصر فى طريق عودته من الهند ، وارسل من السويس تابعه ببعض الخطابات الى أصدقائه ومعارفه مثل رياض باشا وشريف باشا وعبد الله فكرى باشا . وقد حمل خطابه الى الأخير تاريخ ٨ صفر ١٣٠٠ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ . وذكر فى مسودة خطابه لرياض أنه ذاهب الى أوربا . ثم ظهر فى باريس فى أوائل يناير . لأنه كتب مقالا بجريدة « أبو نضارة » فى ٨ يناير ١٨٨٣ . ومعنى ذلك انه كان من الصعب ان يسافر الى امريكا ويعود فى ذلك المدى الزمنى القصير اذا أخذنا

فى الاعتبار مشقة السفر وطول الرحلة فى ذلك الزمن ولكن ، متى عرف بلنت الأفغانى ؟

لقد كان بلنت يتردد على مصر بصفة سنوية تقريبا منذ ١٨٧٥ ومع ذلك لم يلتق بالأفغانى فى سنواته الأخيرة بالقاهرة . بل لم يلقه الا فى لندن بعد إطلاق سراحه فى الهند ورحيله الى فرنسا مارا بلندن . وكان بلنت قد قرر فى مطلع ١٨٨٣ ان يسافر الى سيلان لزيارة احمد عرابى وزملائه المنفيين معه ، وأن يتجه بعدها الى الهند بهدف تجديد معرفته بوضع المسلمين هناك ، وكتب عن خطته فى كتابه غير المشهور « جوردون فى الخرطوم » فقال :

« شجعنى على تنفيذ هذه الخطة ذلك الزعيم الرائد لحركة الاصلاح المحمدية السيد جمال الدين الافغانى الذى تجد سيرة له فى غير هذا المكان . وقد عرفته خلال هذا الربيع فى لندن . ومنذ ان طرد من مصر سنة ١٨٧٩ على يدى الرقابة المالية الأنجلوفرنسية ساح فى بلاد كثيرة شرقا وغربا . فقد ذهب الى الهند أولا حيث تعرض لاضطهاد الشرطة السياسية . ثم الى الولايات المتحدة حيث حاول الحصول على الجنسية الامريكية ، ثم مر بلندن وذهب الى باريس فى النهاية حيث جمع حوله فريقا من الوطنيين المبعدين من مصر بعد (معركة) التل الكبير . وقد حدثته عما عزمت عليه من زيارة الهند فقال انها ستكون زيارة مفيدة »

لم يذكر بلنت كيف تعرف الى الافغانى ولا من قدمه اليه . ولكنه أقام معه علاقة صداقة استمرت الى قبيل وفاته سنة ١٨٩٧ ، وكان كثير الرجوع اليه فى المسائل السياسية التى تفجرت فى عصره . غير ان رحلته الى الهند كانت بداية تلك الصداقة التى ربطت بينه وبين الافغانى . وقد سجل ذلك فى كتاب آخر غير مشهور عندنا هو « الهند فى عهد ريبون » وكان ريبون هذا حاكما انجليزيا للهند برتبة لورد فى ذلك الوقت ، كان ايضا من أصدقاء بلنت وصاحب دعوته الى زيارة « جوهرة التاج البريطانى » . وفى هذا الكتاب

سجل بلنت تحركاته ومشاهداته بأسلوب اليوميات الذى اتبعه فى كتبه الآخرى . واحتفظ للافغانى بالكثير من المداخل والاشارات التى ننقلها هنا بحسب تسلسلها الزمنى بادنين بسفر بلنت من لندن الى باريس بصحبة سكرتيره لويس صابونجى الصحفى السورى المغترب فى [illegible] وقتها .

١٣ سبمبر ١٨٨٣

وصلنا بقطار الليل الى باريس . ونزلنا بفندق سان رومان . وهو مكان هادىء للقاء أصدقائنا . وقد جاء صابونجى الآن مع جمال الدين . وحين رأيت الشيخ فى لندن خلال الربيع كان يرتدى لباس الشيوخ . أما الآن فهو يرتدى ملابس فصلت على الطريقة الاستانبولية وبدت ـ مع هذا ـ لائقة عليه . وقد تعلم قليلا من الكلمات الفرنسية ، ولكنه لم يتغير . ودار حديثنا عن الهند وامكان حصولى على الثقة الحقيقية للمسلمين هناك . فقال ان كونى انجليزيا من شانه ان يصعب الامور جدا ، لان كل صاحب منصب يخشى عليه هناك يعيش فى حالة فزع من الحكومة التى بثت جواسيسها فى كل مكان . وقد كان هو نفسه أقرب الى السجين فى بيته هناك ، وترك الهند والخوف يملأ جوانحه ...

قال ان حيدر اباد يمكن ان تكون افضل مكان لى ، لأن بها لاجئين من جميع ارجاء الهند وهؤلاء لايخافون كثيرا من الحكومة البريطانية . وذكر أنه سيكتب لى بعض الخطابات الخاصة لشرح وضعى ويوجهها لبعض محررى الصحف الاسلامية هناك . فحدثته عن الوضع السياسى وكيف يبدو لى من الضرورى أن ينضم المسلمون الى الهندوس فى تدعيمهم لسياسة ريبون .

وسألته عن اللغة التى يجب ان استخدمها فى الحديث عن السلطان (عبد الحميد) فنصحنى بألا اذكر شيئ ضد السلطان فى الهند ولا عن الخلافة العربية . لان هناك فكرة سائدة بأن الانجليز يزمعون إنشاء خلافة عربية ضعيفة فى شبه الجزيرة

يتولاها طفل ويستطيعون استخدامها فى السيطرة على الأراضى المقدسة . ولهذا يحظى اسم السلطان الآن فى الهند باحترام لامثيل له من قبل .

١٤ سبتمبر ١٨٨٣

جاء جمال الدين وصنوع وصابونجى على الافطار ، وظللنا نتحدث طول النهار . وقد جاء الشيخ معه بخطابين كتبهما للنواب عبد اللطيف فى كلكتا والنواب رسول يارخان فى حيدر آباد[١] . وأرجو ان يكونا ذا نفع كبير . وقد روى لنا بعض الحوادث الطريفة عن قومه وأسرته تكذب فكرة أن الافغان شعب سامي وتؤكد أنهم - على العكس - أريون مثل سكان شمال الهند ، ولكن اسرته نفسها عربية ، حافظت دائما على سنة اللغة العربية . ثم تحدث عن التاريخ . وقرأت عليهم قصيدتى « الريح والدوامة » التى ترجمها صابونجى للشيخ ترجمة إجمالية . فقال انه لو سمع أن فى العالم رجلا انجليزيا يتعاطف حقيقة مع محن الهند لما صدق . وحثنى صنوع على ترجمة القصيدة الى العربية شعرا بطريقة جيدة على يدى الرقام[٢] تلميذ محمد عبده . وقد استعرضت معه برنامجا رتبته لاعادة الحزب الوطنى فى مصر . ثم تحدثت مع الشيخ حول مشروع اعادة الازهر فى صورة جامعة حقيقية لجميع المسلمين فشرح لى أن الأزهر كان على هذه الصورة فى الماضى » .

عند هذا الحد انتهى ذكر الأفغانى فى يوميات بلنت قبل سفره الى الهند . ومضى بلنت نفسه فى تسجيل يوميات الرحلة بعد ذلك . وكان من الطبيعى أن يرد ذكر الأفغانى مرة اخرى فى الجزء الخاص بالهند . ولاسيما أن بلنت سلم رسائله الى أصدقائه

---

(١) نواب كلمة اوردية ماخوذة عن العربية بمعنى نائب

(٢) لم ترد عن هذا الاسم أية اشارة فى مصادر العصر وربما يكون بلنت قد سمعه او كتبه خطأ .

وتلاميذه هناك . كما قابل عددا آخر ممن لم يذكرهم له . ففى ٢٩ نوفمبر ١٨٨٣ قابل فى حيدر أباد شابا فى الثانية والعشرين يدعى « لائق على » خلف اباه فى حكم ولاية حيدر آباد ، وذكر له ان الافغانى كان صديقا لأبيه ، ثم دعاه الى الافطار معه يوم السبت أول ديسمبر . ولما ذهب اليه بلنت قابل هناك سكرتيره السيد حسين بلجرامى وآخاه السيد على بلجرامى ، وكلاهما من ابناء الشيعة فى مدينة دلهى . وكان الأخير مهندسا تعلم تعليما انجليزيا جزئيا وأصبح فيما بعد عضوا بالمجلس الهندى فى لندن ، وقد ذكر لبلنت أنه لو آعيد عرابى الى مصر ومعه آحرار الأزهر وتكون هناك اساس دينى للأصلاح لكان آثر ذلك عظيما فى الهند واضاف : « نحن ننظر الى مصر ومكة آكثر مما ننظر الى القسطنطينية ولكننا جميعا فى الهند متخلفون ولذلك لاغنى عن الاساس الدينى » وكان على بلجرامى يكره ـ كشيعى ـ السلطان عبد الحميد كما يقول بلنت ، ويرى الأفغانى ـ الذى عرفه أثناء نفيه فى الهند ـ « آقرب الى الاشتراكى والمهيج المحرض الذى لايستطيع تحقيق الاصلاح المنشود »

وفى مساء ذلك اليوم من ديسمبر زار بلنت نواب رسول يارخان الذى لم يحضر مأدبة الافطار . وقال عنه انه « عالم شاب فاضل من النوع الأزهرى الذى آعرفه جيدا فى مصر ، متحرر ، اشتراكى وتلميذ متحمس لجمال الدين ، لايعرف الانجليزية ، ولكنه ملم بالفارسية والعربية الى حد ما . وقد تحدثنا بالآخيرة . وقال إن غالبية المسلمين هنا من السنة ولكن لايوجد خلاف كبير بينهم وبين الشيعة ولاشعور سيىء . وجمهور الناس هنا جاهل تماما بما يجرى خارج حيدر آباد ولكنهم سمعوا عن الحرب المصرية (بين عرابى والانجليز) وتعاطفوا مع عرابى .. ثم أضاف بلنت الى ذلك « ولست تجد فى الهند كلها معلما مثل جمال الدين . فقد آخرج (الشاب) صورة للشيخ الافغانى من جيبه بإجلال واحترام ، ونسخة من صحيفة « أبو نضاره » كانت صورتى منشورة بها ثم

قرأ علينا أبيات الشعر المكتوبة تحتها ..

من يومياته خلال الزيارة بعد ذلك نستطيع استخلاص النتف التالية التى جاء فيها ذكر الأفغانى :

١ ـ فى ٥ ديسمبر (١٨٨٣) قابل « شيخ علماء الشيعة سيد على وهو من أبناء شوستر وقد تحدثنا معه بالعربية . وهو أيضا صديق لجمال الدين كما يقول ولكنه اشتهر بأنه « متعصب كبير » وهو عراقى قح ، وأعترف بأنى لم أعجب به !!

٢ ـ فى ٩ ديسمبر تأكد من صحة « الحكايات التى رواها الأفغانى عن نفى (السلطة الانجليزية) لرجال الدين (المسلمين) الى جزر أندمان »

٣ ـ عندما غادر حيدر اباد سار معه رسول خان نحو ساعتين على الطريق ، وجاءه بهدايا وقال له إنه سار مع الأفغانى على هذا النحو من قبل عند مغادرته المدينة .

٤ ـ فى ٢٢ ديسمبر قابل فى مدينة كلكتا مولوى عبد اللطيف شيخ المسلمين السنيين وكان يحمل له رسالة من الأفغانى . وقال له أنه سمع بأعماله من جمال الدين [١] . ولكنه يخشى ألا يتحدث معه الناس حتى لايثيروا غضب الحكومة عليهم . ويبدو أنه لم يعرف جمال الدين معرفة شخصية ..

٥ ـ فى ٢٤ ديسمبر قابل شخصا اخر فى كلكتا يدعى مولوى أ . م فذكره بجمال الدين فى استنارته وتحرره . وكان الرجل عالما « تحول الى الفكرة الكبيرة فى الاصلاح الاسلامى والوحدة الاسلامية التى دعا اليها جمال الدين ، ويوجد من هذا النوع الآن كثيرون يتوسطون الفريقين المتصارعين هناك (المتعاونون مع الانجليز والتقليديون) وقد ذكر الرجل أن جمال الدين خاب أمله فى مسلمى كلكتا الذين كانوا يخشون الاستماع اليه بسبب الحكومة » ! ثم دعا بلنت الى العشاء ومقابلة تلاميذ الأفغانى .

---

(١) هذه مجاملة فى الغالب لان بلنت لم يعرف الافغانى قبل نفيه الى الهند . وقد اكدها هو نفسه بعبارته الاخيرة عن الرجل .

٦ ـ فى ٢٦ ديسمبر لبى الدعوة وقابل جمعا كبيرا من تلاميذ الآفغانى فى كلكتا ، « تحدثوا عنه بشىء كالعبادة !!

٧ ـ فى أول يناير ١٨٨٤ كتب : « زارنى خمسة من أصدقاء جمال الدين ليعبروا عن إعجابهم بكتابى « مستقبل الاسلام » . وهم جميعا من شباب الطلاب ، متحمسون ، يكرهون انجلترا بكل قلوبهم ، ومن قراء « ابو نضارة » .. ولكنهم جميعا متحررو التفكير من ناحية الدين ، وأفكارهم هى نفسها أفكار جمال الدين »

ويجب أن نلاحظ فى هذه النتف وغيرها أن بعض المصطلحات هنا لم تكن تعنى ماتعنيه اليوم على وجه الدقة . فمصطلح « التحرر » فى التفكير أو الرأى كان يقصد به مانسميه « الاستنارة » أو ـ بمعنى آخر ـ البعد عن الجمود والتزمت . ومصطلح « اشتراكى » كان يعنى وقتها شيئا قريبا من جرأة التفكير والثورية فى أذهان العامة وأصحاب السلطة .

نلاحظ أيضا أن الافغانى فى هذه الصور السريعة التى رسمها له بلنت وتلاميذه فى الهند ، يبدو ذا شخصية مغناطيسية تجذب اليها الكثيرين حتى فى وقت محنة الشخصية . كما يبدو مختلفا عليه كما هى العادة مع مثل هذه الشخصيات . فهو إما رجل ذو سطوة وأثر فى المحيطين به ، وتتدرج هذه السطوة من مجرد الاعجاب به الى الحديث عنه بشىء أقرب الى العبادة ، وإما رجل خطير ، وتتدرج هذه الخطورة من خشية الناس من الاستماع اليه وتجنبه حرصا على سلامتهم الى وصفه بأنه مهيج ومحرض وثورى ، أى اشتراكى بالمعنى الذى كان يفهمه العامة وأصحاب السلطة وقتها .

كما نلاحظ أن الآفغانى يميل الى تأكيد أصله العربى ، وهذا أمر خاص به لانملك تكذيبه الا اذا جئنا ببراهين على عكسه . ولكنه هو نفسه يتيح لنا البراهين على تصديقه حين يميل الى نسبة نفسه الى آل الحسين ويتخذ فى توقيعه اسم « الحسين » ونلاحظ من جهة أخرى أن المتعاطفين معه فى الهند وقتها ، أصدقاء أو

تلاميذ . كانوا اكثر عددا من الساخطين عليه .
كان من الطبيعي أن يتوقف بلنت في باريس في طريق عودته من الهند الى وطنه . وأن يزور صديقه الأفغاني وكان ذلك في مارس ١٨٨٤ . وهناك وجد صديقه القديم محمد عبده لم يره منذ بداية الصراع مع الانجليز قبل احتلالهم لمصر . ودار الحديث بين الأصدقاء الثلاثة حول رحلة الهند وأخبار المهدى في السودان . وكانت هذه الاخبار تحتل نصيب الأسد وقتها في عناوين الصحف الأوربية . فقد نجح محمد أحمد المهدى (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) في مطلع ذلك العام (١٨٨٤) في تهديد مدينة الخرطوم بعد قضائه على حملتين عسكريتين أرسلتهما الحكومة المصرية للقضاء عليه . وتنبأ المراقبون للحركة في أوربا بقرب سقوط العاصمة السودانية مالم تتخذ اجراءات رادعة . وشعر الانجليز بصفة خاصة بأن وجودهم في مصر أصبح مهددا . وبدأوا في اعداد حملة عسكرية أخرى عهدوا بها الى الجنرال تشارلز جوردون (١٨٣٣ ـ ١٨٨٥) لمعالجة الموقف . وكان الوطنيون المصريون ، في داخل البلاد وفي المنافى . يتطلعون الى انتصار المهدى حتى يحرجوا موقف الانجليز من ناحية . ويثبتوا دعائم الحكم الاسلامى من ناحية أخرى . فقد كانت رسالة المهدى الى قومه تتلخص في تطبيق الاسلام وتطهيره من الكفار أرباب الحكم المصرى التركى الفاسد .

يطلب الأمان من الانجليز لمفاوضتهم على الصلح مع المهدى

ادخل بلنت السرور على الافغانى فى باريس حين حدثه عن آخبار رحلته الناجحة الى الهند . وكان بلنت قد تأكد بنفسه من سطوة الأفغانى ونفوذه داخل دوائر المثقفين المسلمين فى الهند . ولكن اخبارا كثيرة جديدة زحفت على أخبار الرحلة وغطتها . فقد شرع الأفغانى فى إصدار صحيفته « العروة الوثقى » واستدعى لذلك تلميذه محمد عبده من بيروت ، ونجح الاثنان فى تقديم العدد الاول من الصحيفة فى ١٣ مارس ١٨٨٤ ، قبل نحو اسبوعين من وصول بلنت وأصبح الافغانى مشغولا الى أبعد درجة ، لابالصحيفة فحسب ، وانما بأخبار المسلمين والحركات الاسلامية ، وكانت اخبار حركة المهدى على رأس ماشغله من آمور .

وقد شغلت آخبار المهدى بلنت ايضا منذ عودته من رحلته ومروره على الافغانى فهو لم يكن متعاطفا مع فكرة الخلافة العربية فحسب ، ولامع الصحوة الاسلامية ضد تغلغل الانجليز فى اراضى المسلمين فحسب ، وانما كان تعاطفه مع الأخبار لسبب شخصى أيضا . فالجنرال جوردون ـ الذى قبل التصدى للمهدى ـ صديقه ، وعلى صلة به عن طريق المراسلة . وهو آيضا صديق متدين الى حد الهوس ، ولكنه مغلوب على امره فى رآى بلنت ، لانه لم يختر المهمة التى كلف بها ، ولأن اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى فى مصر ، آصر على تكليفه كأنما ليتخلص منه ، ولاسيما بعد آن

رفض شريف باشا رئيس الوزراء ، فى ذلك العام ، تعيينه على أساس أنه مسيحى .

حين سأل بلنت الأفغانى عن رأيه فى موقف جوردون أجابه بأنه موقف حرج وفاشل . وحين سجل بلنت زيارته لمقر جريدة « العروة الوثقى » فى ٢٧ مارس ١٨٨٤ قال :

«وجدنا جمال الدين فى غرفة صغيرة مساحتها ثمانية أقدام مربعة تقع فى الطابق الأعلى من بيت بشارع دى سيز ، حيث كان يحرر مع عبده صحيفة تدعى « العروة الوثقى » وفى ذات الوقت تقريبا دخل رهط شديد التنافر من الغرباء ملأ أفراده الغرفة . فها هى سيدة روسية ، وذاك رجل بر آمريكى ، وهذان شابان من البنجال قدما نفسيهما بأنهما متصوفان جاءا - كما قالا - لاستشارة الشيخ الكبير . وقد تحدثا - بلغة غريبة عن الانسانية ولكنهما بديا طيبى القلب متحمسين تماما لقضيتهما لدرجة أنهما لم يأبها لوجودنا . وكان الهدف الاساسى من زيارتهما الاستعلام عن المهدى الذى يعتقدان أنه رجل إنسانى النزعة ولكن عقليهما لم يستوعبا تجارة الرقيق ، فأحرجا الشيخ بسؤاله عن آراء المهدى حول هذا الموضوع . ووجد الشيخ صعوبة كبيرة فى إقناعهما ، ولكنه شرح لهما مدى ماغنمه الرقيق بين المسلمين مقابل الحصول على حريتهم . وقد اقتنعا بذلك وخرجا راضيين ، ولكن الشيخ المسكين جاهد كثيرا حتى يكتم الضحك . وعندما انصرف الشابان تحدثنا حديثا طيبا عن الهند وكل مافعلناه هناك مما آدخل السرور كثيرا عليه »

عاد بلنت بعد هذه الزيارة القصيرة الى لندن وقد نال من الأفغانى وعدا مهما ، هو أن يعاونه فى تحقيق الصلح مع المهدى وانسحاب جوردون ، شرط أن تبدى وزارة الخارجية البريطانية حسن نيتها . وما ان وصل بلنت الى لندن حتى بدأ فى الاتصال بمكتب جلادستون الذى ظل رئيسا للوزراء . ولم يجد عند جلادستون مانعا من الصلح . فشرع على الفور فى الكتابة الى

الأفغانى فى باريس .

ولم يكن الموقف فى السودان وقتها ابن لحظته . فقد كان من الواضح أن المهدى عزم على تحرير السودان من الادارة المصرية ـ الشركسية الفاسدة . ولم يكن تزامن حركته مع الحركة العرابية مجرد مصادفة . فقد كانت الحكومة المصرية تعانى من الضعف ويهمها فى الاساس أن تسوى المسألة العرابية . وكان العرابيون أنفسهم عازفين عن التدخل فى السودان حتى لايضعفوا قوتهم . ولكن سقوط العرابيين واحتلال الانجليز للبلاد شجع الحكومة المصرية مرة أخرى على التدخل . ومع ذلك فشلت الحملة التى ارسلتها لمحاربة المهدى . وقتل قائدها الجنرال الانجليزى هيكس (باشا) فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ . وعند ذاك أشار الانجليز على الحكومة المصرية باخلاء السودان . ووافق الخديو توفيق ، ولكن رئيس الوزراء شريف (باشا) رفض الفكرة ، وفضل ان يترك الحكم على ترك السودان . وقدم استقالته فى ٨ ابريل ١٨٨٤ محتجا على تدخل الانجليز فى شئون الحكم ومسئولية الوزارة أمام الخديو . وذكر فى كتاب استقالته أن التخلى عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسيا وتجاريا ولما عرض الخديو الوزارة على رياض (باشا) بشرط إخلاء السودان رفضها بدوره ولم يجد الخديـ ـامه سوى نوبار (باشا) رجل الازمات التى من هذا النو ـشكل الأرمنى العجوز وزارته فى ١٠ يناير ١٨٨٤ . واستـ ـى ـ بإيعاز من اللورد كرومر ـ على إرسال جوردون (باشـ السودان . فعين حكمدارا (حاكما) عاما على السود ٢٤ يناير صدرت له التعليمات بالعمل على تسوية الموضـ اخلاء السـ ـ . ومع ان جوردون غادر القاهرة بقطار خاص فى ٢ يناير فلم يصل الى الخرطوم الا فى ١٨ فبراير . هناك أباح تجارة ـرقيق مرة اخرى ، وحاول استمالة الأهالى بتخفيض الضرائب الى النصف واحراق السجلات القديمة ـيون . وأر الى المهدى رسولا يحمل منه قرارا بتعيين سلطانا

على كردفان وبعض الهدايا ، فرد المهدى الرسول مصحوبا بوفد منه يحمل رسالة الى جوردون .

فى هذه الرسالة المهمة التى نشرها احمد شفيق (باشا) فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن قال المهدى : الى جوردون آخذت خطابك الذى تسمينى فيه سلطانا على كردفان فتولانى الذهول من ذلك وداخلنى مزيد الاستغراب المتولد عن زعمك آنك تعطينى بلادا هى لى وأنا لها . واعلم وفقك الله ان رسالتى المهدوية لاتستوقفنى فى كردفان فقط . بل تقضى علىّ بآن آذهب الى الخرطوم وأحتلها ، ومنها آسير الى الأصقاع البعيدة والأنحاء الشاسعة وأما الهدية المزركشة التى بعثتها الىّ فهى اليك راجعة ، بل هى بك آولى وأليق ، فإن دعوتى تأبى إتشاح مثل هذه الملبوسات . هذا هو شرح حالتى . وآما انت فإذا رغبت الحياة فاتبعنى لتنجو بنفسك . واليك دلقا (لبس الدراويش) فالبسه واسلك مسلك الدراويش فتنال رضاى »

ولم يسلك جوردون مسلك الدراويش وظل يعانى من حصار قوات المهدى والصحف الانجليزية فى لندن تحاول دون توقف ان تجد له مخرجا .

نعود الى مراسلات بلنت والافغانى حول الموضوع . وقد نشر بلنت نصوص سبعة خطابات ضمن ملاحق كتابه « جوردون فى الخرطوم » ومنها اربعة للأفغانى وثلاثة لبلنت وقد كتبت الخطابات جميعها - باستثناء آخرها - باللغة الفرنسية كطلب الافغانى وتبودلت فى الفترة من ٢١ ابريل ١٨٨٤ الى ١٢ مايو ١٨٨٥ ، أى فى مدة تقرب من سنة كاملة ومن خطابات الافغانى الاربعة نعرف انه لايعادى جوردون ، ويعده « نصيرا للحرية ومدافعا عن الاسلام » ولكنه يرى للمهدى حقوقا يجب أن تراعى . كما نعرف أن بعض كبار أنصار المهدى كانوا تلاميذا للأفغانى على حد قوله . ولكنه يعتقد أن المهدى وأنصاره لايريدون سوى الاستيلاء على الخرطوم وأسر جوردون ، وان الحل فى رأيه يتلخص فى جلاء

الانجليز عن مصر والسودان مقابل خروج جوردون ومن معه من المسيحيين سالمين . فاذا قبلت الحكومة الانجليزية هذا الشرط أمكن ارسال لجنة صلح يكون معظمها من المسلمين ويشترك فيها الانجليز ومنهم بلنت نفسه ويكون الهدف منها ضمان أرض مصر واعادة فتح ابواب التجارة بينها وبين السودان .

ولم يختلف بلنت فى خطاباته الثلاثة على ماطرحه صديقه من أفكار وحلول . وكان هو نفسه قد كتب رسالة الى رئيس الوزراء جلادستون يعرض فيها التوسط لانقاذ جوردون وذكر ان الافغانى قد أرسل له (صباح ذلك اليوم ٢٣ ابريل) رسالة يؤكد فيها أنه سيبذل كل مافى وسعه لانقاذ حياة جوردون حرصا منه على صداقته ببلنت .

سجل بلنت فى مفكرته فى ذلك اليوم :

« إن فكرتى عن الحل هى إما ان أذهب بنفسى ، وإما ان أكلف شخصا آخر بالذهاب ، مثل جمال الدين أو عبده أو الشاب عبد العال ، الى دنقله أولا ثم الى الابيض ... بحيث يتم جلاء جوردون عن التحصينات وكذلك جلاء الاوربيين والأتراك والأقباط وغيرهم ممن قد يفضلون العودة الى مصر . ثم تعقد بعد ذلك معاهدة صلح مع المهدى أو يتعهد من جانبه بتثبيت حدوده عند بربر ودنقله وحدود الحكومة المصرية عند اسوان »

وقد طلب بلنت الا يتعرض الأوربيون للبحر الاحمر ، بحيث لاتجرى أى عملية عسكرية أثناء قيامه هو بمهمة التوسط ، والا ينتقم من موته فى حاله اعتداء قوات المهدى عليه ، أو ترسل بعثة لاطلاق سراحه فى حالة اعتقاله ، فضلا عن ضرورة تسجيل هذا الاتفاق والمطالبة باطلاق سراح عرابى وعودته فى حالة نجاح بلنت فى مهمته . ومع ذلك ابدى بلنت خوفه من رفض الحكومة الانجليزية فكرة ذهابه الى جوردون ، ولاسيما أن احد أصدقائه أشار الى تأخر هذا الحل عن موعده وهو نفسه سكرتير جلادستون الذى ذكر له ان الحكومة قررت امس (٢٢ ابريل) ارسال بعثة

انقاذ الى بربر . وماهى الا ايام حتى جاء رد جلادستون فى أول مايو بأن الحكومة لن تستفيد من فكرة بلنت فى الوساطة ، لانها قررت الجلاء عن السودان ومنحه حريته ولكن بلنت عزا هذا الرد وتأخره الى وصول كرومر من مصر وتأثيره على الموقف كله ويبدو أن بلنت لم يفاجأ بموقف الحكومة ولابرد وزير الخارجية اللورد جرانفيل الذى جاءه فى ١٩ مايو برفض فكرة التدخل والوساطة . وقرر تأجيل رحلته الى باريس التى كان قد رتبها ـ فى حالة موافقة الحكومة ـ للاتفاق مع الافغانى ومن معه .

شهدت الصحف الانجليزية وكواليس الرأى العام والحكومة الكثير من الاخبار والشائعات حول استفحال خطر المهدى وقرار الحكومة بالجلاء سرا عن السودان وصعيد مصر ، مع بقاء الاسكندرية فى أيدى الانجليز وتسليم القاهرة الى السلطان العثمانى ، مقابل أن يأمر السلطان بفتح بوغازى الدردنيل والبوسفور امام الاسطول البريطانى . وكانت مهمة الاسطول ان يهاجم ثغر باطوم على بحر قزوين ثم يتقدم الى مدينة باكو لقطع اى اتصالات بين الروس وأفغانستان بسبب تصاعد الموقف هناك وتورط الانجليز . وظلت مسألة حصار الخرطوم وخطورة موقف جوردون تتردد أيضا فى الصحف والاجتماعات العامة دون حل . وأعدت الحكومة الانجليزية سراً حملة عسكرية جديدة عهدت الى فاتح مصر وهازم العرابيين الجنرال ولسلى . ووصل ولسلى الى القاهرة فى ٢٢ سبتمبر ١٨٨٤ بهدف انقاذ جوردون وإقصاء الحكم المصرى عن السودان وترحيل جنود مصر والمدنيين ، وترك السودان للمهدى . ومع هذا كله لم يتخل بلنت عن فكرته السابقة فى الوصول الى حل سلمى بين قومه والمهدى .

وفى شهر اكتوبر سافر بلنت الى تركيا . وهناك قابل كثيرين من المصريين المنفيين فى عاصمة الخلافة بعد سقوط عرابى ، وكان من هؤلاء اسماعيل جودت الذى كان مسئول شرطة الأجانب آثناء القتال بين العرابيين والانجليز ثم خرج منفيا وانضم الى حاشية

الأمير حليم بن محمد على والمطالب بعرش مصر . وقد طلب بلنت من الأمير أن يبعث معه الى لندن اسماعيل جودت ومصطفى نجدى طبيب عرابى السابق ، للادلاء بشهادتيهما حول تطورات الموقف قبل الاحتلال .

عاد بلنت الى لندن فى شهر نوفمبر ومعه جودت ونجدى وفى لندن قابل جودت صديقه ابراهيم المويلحى الذى ابعد وقتها من باريس وظل على علاقة بالافغانى ومحمد عبده منذ أن عرفهما وصادقهما فى القاهرة قبل المنفى . وكان يشاركهما فى تحرير « العروة الوثقى » التى توقفت عن الصدور فى ١٦ اكتوبر . ويبدو انه جاء لندن بايعاز من الأفغانى للاتصال ببلنت . ويبدو أيضا ان الافغانى بدأ يعد نفسه بعد توقف الجريدة للتفرغ من أجل الصراع الاسلامى الانجليزى فى مصر والهند وافغانستان والسودان ، فقد كتب بلنت فى مفكرته بتاريخ أول يناير ١٨٨٥ أنه رتب مقابلة مع الأفغانى من خلال تلميذيه (المويلحى وجودت) اللذين شرحا له « طبيعة الخطة التى يرتبها جمال الدين (لمواجهة الانجليز) بالاشتراك مع فرنسا وروسيا والهند بحيث اذا لم يساعده السلطان (العثمانى) فى ذلك فمصيره الخلع . ولكن السلطان سيتعاون معهم . (الأفغانى ومجموعته) وهم يريدون فرص . شروط الصلح على انجلترا والا فانهم سيقومون بإشعال الثورة فى « الهند »

وفى ذلك الوقت (أو يناير ١٨٨٥) كان ولسلى يعسكر بحاميته عند كورتى ، ويقاتل جنود المهدى ، ويحاول التقدم الى الخرطوم . وكان معنى ذلك أن يشتد المهدى ورجاله فى الضغط على جوردون حتى سقط قتيلا وسقطت الخرطوم معه فى ٢٦ يناير . وتوقف ولسلى حيث كان . ولم يجد أمامه سوى إبلاغ الحكومة المصرية وحكومته بما حدث . ولم تجد الحكومتان - أو الحكومة الانجليزية على الأصح - سوى اعادته الى القاهرة فى النهاية فى أوائل مارس ١٨٨٥ ، تاركه السودان لأهله ورجاله .

لم يكتف بلنت بهذه النهاية المأسوية التى تعرض لها صاحبه

جوردون ولكنه مقتنعا بأن المشكلة الحقيقية تتمثل فى المهدى وانصاره ، وانه من الضرورى لبريطانيا أن تتوصل الى صلح مع المهدى والا تعرضت مصالحها فى المنطقة كلها الى الخطر المؤكد ويبدو ان السياسة الانجليزية ـ كعادتها فى تلك الفترة ـ كانت تقوم على ترك الابواب والاحتمالات مفتوحة فاذا كان للرسميين موقف معين فمن الممكن لغير الرسميين ـ مثل بلنت ـ أن يعرضوا موقفهم وان يحاولوا بطريقتهم الخاصة ماداموا يعملون داخل دائرة الحرص على مصلحة بلادهم . ومع ان بلنت اشتغل من قبل بالدبلوماسية وعرف خباياها فلم يتعظ مما رآه أو عرفه . واقبل بحسن نيته وطموحه الرومانتيكى على الاستمرار فى الاجتهاد والتشاور مع الافغانى وتلاميذه وفى أواخر شهر فبراير ١٨٨٥ ـ قبل ان ينسحب ولسلى من حدود السودان ـ قام بلنت بزيارة الى باريس ، حيث عاد الى مفكرته ليسجل أحداث الزيارة وتطوراتها أولا بأول :

٢٥ فبراير ١٨٨٥

نزلنا بفندق واجرام . جاءنا صنوع فى الليلة الماضية وتبادلنا الشجون . وفى هذا الصباح جلست الى جمال الدين مدة ساعتين . وأعتقد ان معالجة مسألة المهدى تبدو الآن أصعب مما ظننت ، أو أصعب مما كانت عليه فى العام الماضى ، لأن الاستيلاء على الخرطوم غير الموقف كثيرا . فهم مزهوون كثيرا بقتل خمسة جنرالات انجليز ، وهو أمر لم يسمع به أحد من قبل فى أى حرب كما يقولون . وهؤلاء الخمسة هم : هيكس وبيكر وستيوارت وإيرل ، وأخيرا جوردون . ولهذا ستكون شروط المهدى باهظة . ومع ذلك يقول جمال الدين بوضوح أن الصلح ممكن إذا رغب الانجليز ، بحيث يتركون السودان أولا ، ويسلمون سواكن الى السلطان ثانيا ، ويستخدمون دبلوماسيتهم لاخراج الايطاليين من مصوع

(١) ثالثا ، ويرتبون مع السلطان من أجل إقامة حكومة إسلامية فى مصر رابعا . ويرى أن اعادة عرابى (الى مصر) من شأنها ان تسهل الأمور كثيرا ، ولكن اى حكومة ذات شعبية فى مصر تستطيع التصالح مع محمد احمد (المهدى) أما فيما يتعلق بطريقة التنفيذ فيقول جمال الدين أنه ضرورى أن تخطو الحكومة الانجليزية الخطوة الاولى . فالمهدى لايستطيع فى الظروف الراهنة أن يبعث مبعوثا الى انجلترا ، ولا أن يعينه (جمال الدين) « وكيلا » لهذا الغرض . فالمبعوث يجب ان تبعثه انجلترا وكل مايستطيع (جمال الدين) أن يفعله هو تمهيد الطريق لهذا المبعوث حتى يحقق غايته . وهو يوصى بأن يكون المبعوث شخصا جديرا بالثقة . وسألته عن إنجيل جوردون (٢) الذى قلقت عليه للغاية السيدة ألنات وطلبت منى السعى لاعادته ، ولكن جمال الدين لايعد بتعليق آمال على استعادته قبل إقرار الصلح . ومع ذلك رجوته أن يسعى للحصول على الانجيل فإذا نجح يكون ذلك برهانا ساطعا لحكومتنا على قوة نفوذه .

« وقد نشرت التايمز أمس موضوعا عن جمال الدين أعتقد أنه صحيح ، ولكن جمال الدين غاضب على حذف كل ماقاله ضد اسماعيل باشا وتعيين الأمير حسن فى السودان (٣) »

---

(١) فى ٥ فبراير ١٨٨٥ انتهزت إيطاليا فشل ولسلى وانتصار المهدى فطوقت مدينة مصوع برضاء إنجلترا مقابل تاييد ايطاليا لسياسة الانجليز فى مصر . وكانت المدينة تضم حامية مصرية .

(٢) نسخة الانجيل التى كان يحتفظ بها جوردون حتى مصرعه .

(١) فى ١٢ فبراير ١٨٨٥ عين الخديو توفيق ابنه الامير حسن واليا من قبله على السودان . وتلكا الانجليز فى الموافقة على سفره بسبب اشتراطه اصطحاب قوة معه من ثلاثة الاف رجل . فلما تخلى عن شرطه سمحوا له بالسفر فى ٢ مارس . وقبل ان يصل الى دنقله وردت برقية من لندن برجوعه اما المقال الذى ذكره بلنت عن الافغانى فى «التايمز» فلم نجد له اثرا فى عدد ذلك اليوم

٢٦ فبراير

دعوت جمال الدين وصنوع الى الأفطار وقرأت عليهما رسالتى الى السلطان فوافقا عليها بحرارة . وآكد لى جمال الدين بخصوص أفغانستان أن حكاية النزاع بين روسيا والأمير (أمير افغانستان) لاتعدو كلها أن تكون هراء ، وأن النزاع إذا نشب فسيكون ضدنا (ضد الانجليز) ، وأن الامير سيتيح لروسيا المرور لغزو الهند ، ولكن الطرفين ليسا مستعدين لهذا الآن .

وقد نشرت الصحف تلغرافا مفاده أن النظام (فى الهند) قد عرض قوات للذهاب الى السودان ، ولكنه (جمال الدين) ضحك عند سماعه هذا ايضا . وقال إنهم دائما يعرضون قوات لأنهم يعرفون أن عرضهم مآله الرفض . وحين انصرف صنوع ابلغنى (جمال) على انفراد أنه فكر فى مقترحاتى بشأن المفاوضات مع المهدى ، وأنه واثق من إمكان تحقيقها ولكنه لايستطيع أن يفعل شيئا حيالها مالم تظهر الحكومة الانجليزية حسن نيتها بتعيين آى شخص آخر يوثق فيه لتمثيلها وعندئذ يقوم هو بتقديم البعثة ، التى يجب ان تكون مصحوبة برجل مسلم ، الى شخص ذى حيثية كبيرة فى مصر يتيح له مركزه أن يتحدث عن الشروط . أما هو نفسه (الافغانى) فليس له مثل هذا المركز ، ولايستطيع سوى أن يدل الآخرين على الطريق ، ثم يقوم هؤلاء بتقديم المقدمات اللازمة والسبيل المأمونة للوكيل الانجليزى . ومع ذلك يجب ان يتم الترتيب بوضوح ـ مقدما ـ لعملية تعهد الانجليز بحماية الأشخاص الذين سيتم تحقيق المفاوضات عن طريق وكالتهم . فيجب آلا يسمح بتعرضهم للمشاكل على يدى الخديو .

وكان من رأيه ألا يعقد الصلح فحسب ، وانما ان توقع معاهدة تجارية ، وربما اتفاقية حول تجارة الرقيق أيضا ـ بحيث تقضى الأخيرة بضمان عدم تعرض الأحباش لغارات الرقيق نظرا لعدم

مشروعية هذه الغارات . ومع ذلك لم يوافق (الأفغانى) على الدخول فى اتصالات مع أى مسئول انجليزى حول الموضوع حتى أقتنع (بلنت) أولا بأن نواياهم جادة ، وأن الحماية مضمونة لوكلاء المهدى . وأنا مقتنع بهذا الرأى حول الموضوع ، وكذلك لأنى وجدت جمال الدين حذرا فى وعوده . فهو لايعتقد أن من الحكمة السعى وراء إنجيل جوردون الآن .

٤ ابريل

تناولت العشاء فى فندق واجرام مع جمال الدين . وقرأت عليه كل ماكتبته الى داوننج ستريت (مقر مجلس الوزراء) ووافقنى على الخط الذى اتخذته ، ولكنه يصر على أن الحكومة الانجليزية يجب ان تكتب رسالة الى المهدى لكى يحملها اليه ابراهيم (المويلحى) . ومع ذلك فهو سيفكر فى الموضوع ويتخذ قرارا بعد يوم أو يومين ، أنه ليس ثمة عجلة الآن ، مادام المهدى يستطيع أن ينتظر أكثر مما يستطيع مستر جلادستون .

٧ ابريل

تناول جمال الدين وصنوع الافطار معى .

١٣ ابريل

جاءنى جمال الدين مبكرا وقرأت عليه رسالة مزعجة جديدة تلقيتها ليلة أمس من داوننج ستريت . ولكنه يصر على أن تكتب الحكومة رسالة الى المهدى إذا كانت تريد التفاهم معه . ويقول إنه سيأتى الى انجلترا اذا دعت الضرورة ليرتب الموضوع بشرط أن

اضمن له ألا يقبض عليه هناك . فقلت له إن لاخطر عليه من القبض ، ولكن تجربته فى الهند جعلته متشككا فى الحكومة الانجليزية . ويقول إنه لايوجد سبب مهما كان لتأخير عودة عرابى الى مصر إذا أتاحت الفرصة الصلح مع توفيق . وتوفيق نفسه ضعيف جدا ولايثق أحد فى أنه سيشكل خطورة بعد الآن . أما عرابى فسوف يستعيد كل نفوذه الضائع بسرعة .

(عند هذا الحد عاد بلنت الى لندن وكتب فى اليوم التالى :)

١٤ ابريل

ذهبت لزيارة بتون (إسم تدليل للورد كونيمارا زعيم المعارضة المحافظة فى البرلمان) وهو يتنبأ بعدم نشوب حرب الآن مع روسيا . وقد ذكر لى جمال الدين هذا الرأى نفسه آمس وأنا آصدقه ، لأن روسيا الآن فى وضع من يشاحن آخر أصم آذنيه ولايقدر على الاعتذار .

وعند هذا الحد آيضا تنتهى المرحلة الأولى من علاقة بلنت بمشكلة جوردون والمهدى . فهو قد بدأ ـ كما رأينا ـ بالتحمس لتخليص جوردون من ورطته ، ثم انتهى ـ بعد مصرع جوردون ـ الى التحمس للصلح مع المهدى . ولم تكن بدايته أو نهايته تحمل طابعا رسميا . فقد كان فى الحالتين رجلا مجتهدا حسن النية يحاول آن يجنب بلاده المشاكل أولا وأن يصنع نوعا من التقارب أو التفاهم بين قومه والمنطقة العربية والاسلامية .

من الواضح ان المبادرة فى الحالتين كانت من جانب بلنت وأن ردود فعل الافغانى كانت مشجعة لهذه المبادرة . ومن الواضح أيضا أن الافغانى ظل من البداية الى النهاية متمسكا برأيه حتى سلم به بلنت . وكان رآيه ـ كما رآينا ـ أن تحترم انجلترا إرارة المهدى ، وأن يجلو الانجليز عن مصر والسودان معا ، وأن يعود

عرابى من منفاه وآن يكلل هذا كله بمعاهدة صلح مع المهدى تؤمن حدود مصر من جهة وتضمن استمرار التجارة بين البلدين ، وهى مسألة فى غاية الحيوية بالنسبة للبلدين . ومع ذلك فيبدو آن تجربة الأفغانى السابقة مع الانجليز علمته أن يلزم الحرص والحذر وآن يحدد مايريد بالضبط ولكن أهم مافى الموضوع أنه وافق على الذهاب الى لندن مقر السياسة التى قاومها وحاربها واكتوى بنارها فى مصر والهند قبل أن يأتى الى أوربا . ومع ذلك فمن الواضح أنه آخذ الأمر بمآخذ السياسة أيضا . فالمفاوض يجلس الى مائدة المفاوضات آمام عدوه . وهذه هى السياسة .

راوغه الانجليز حول الجلاء عن مصر
بتأسيس حكومة اسلامية بها

ظل بلنت مشغولا بمسألة المهدى دون أن يفقد الأمل فى تسوية وضع الانجليز فى السودان ومصر معا . وظل أيضا على الاتصال بصديقه الأفغانى بعد انقضاء الجولة الأولى من مشاوراتهما بمصرع جوردون وسقوط الخرطوم ثم سقوط جلادستون ووزارته فى النهاية . ونجح فى إغراء صديقه بالمجىء الى لندن بعد ان ضمن له عدم المساس بحريته . ولكن موافقة السلطات البريطانية على مجيئه كانت تتساوى مع موافقته هو نفسه على المجىء . فلم يسىء للانجليز فى عصره أحد مثلما أساء هو اليهم ، ولم يسىء له أحد فى عصره مثلما أساء اليه الانجليز . ومع ذلك رضى الطرفان أن يتفاهما . وكان رضاه من منطلق السياسة بالطبع ، التى أصبح مشغولا بمشروعاتها وخططها أكثر من أى وقت مضى . وربما فكر الانجليز فى الاستفادة منه فى محنتهم مع المهدى دون أن يفيدوه ، وهذا ماتؤكده وقائع التفاهم كما سنرى . وربما فكر هو فى تحويل الانجليز الى قوة حليفة للمسلمين ، وهذا ماتؤكده ـ مرة أخرى ـ وقائع تفاهمه مع اثنين من كبار مخططى السياسة البريطانية فى الشرق : اللورد راندولف تشرشل والسير دراموند وولف . وكان تشرشل (١٨٤٩ ـ ١٨٩٥) من زعماء حزب المحافظين والبرلمان ووزيرا لشئون الهند فى الوزارة الجديدة التى شكلها اللورد سالسبورى بعد سقوط جلادستون . وكان وولف مسئولا بوزارة

الخارجية ومبعوثا لها فى المهمات الخاصة ، ثم سفيرا فى النهاية .

وقبل أن تبدأ هذه الجولة الخطيرة من التفاهم والمشاورات كان المهدى نفسه قد مات فجأة فى ٢٢ يونيو ١٨٨٥ ولم يكن خبر وفاته قد تأكد بعد عند الانجليز ولا عند الأفغانى ولكن الذى تأكد أن الأفغانى قرر المجيء الى لندن . وهنا نترك المجال لمفكرة بلنت وقد انتقل من بيته الريفى الى بيته فى لندن :

٢٢ يوليو ١٨٨٥

عدت الى لندن . سيأتى الشيخ جمال الدين الى جيمس ستريت (بيت بلنت فى لندن) نزلت على الفور الى مكتب الهند حيث أسعدنى الحظ فوجدت راندولف عائدا لتوه من البرلمان ... ووعدنى بأن يأتى لمقابلة جمال الدين فى بيتى فى العاشرة والنصف من صباح الغد . وشرحت له بالضبط وضع الأفغانى مع تاريخ اعماله فى مصر والهند . وقلت له : إنه فى القائمة السوداء عند الجميع هنا ، وعدو لانجلترا ، ولكن لو لم تكن هذه حاله لما كان فيه نفع لنا .

٢٣ يوليو

وصل جمال الدين ليلا . وجاء راندولف الى جيمس ستريت فى العاشرة والنصف تماما . لقد استرد عافيته وروحه المعتادة . وقبل ان اقدم اليه الافغانى قرأت عليه الخطاب الخاص . بمعركتى الانتخابية (١) ... ثم ارسلنا فى طلب جمال الدين . واستقبله راندولف بأدب جم ، وأجلسه الى جواره على الاريكة ثم شرعا يتحدثان بالفرنسية ، ولكن سرعان ماأدركت أن محصول راندولف

---

(١) كان بلنت قد رشح نفسه للبرلمان ولم ينجح .

منها قليل . فكان على أن أقوم بدور المترجم وبدأ راندولف بسؤال عن وفاة المهدى وعما إذا كان الخبر صحيحا . فقال جمال الدين إنه لايظن ذلك صحيحا ، وحتى إذا صح فلن يحدث فرقا كبيرا ، لأن السودانيين سيختارون خليفة له . وسأله راندولف عمن يكون الخليفة فأجاب جمال الدين : لن يكون عثمان دقنه وانما سيكون أحد رفاق المهدى أى رجل دين . أما عثمان دقنه فسيكون قائد الجيش لاالخليفة . وسينتهى كل شىء بسلام كما حدث عند وفاة النبى ﷺ حين تم اختيار أكثر الناس تدينا . وسأله راندولف بعدئذ عن افغانستان ووضع أميرها . وكان رد جمال الدين باختصار هو : إن عبد الرحمن (الامير) قائد ممتاز ولكنه ليس سياسيا عظيما ، بالرغم من أنه ليس أيضا رجلا أحمق . فأغلبية الافغان تقف فى صفه ، ولكن من السهل أن تنشب الثورات ضده إن الأفغان قوم بسطاء جاهلون بالسياسة ، ولكنهم على استعداد للقتال دائما . وقد يدبر الروس ثورة من خلال اسحق خان أو نفر آخر من أبناء شير على والبيت الحاكم . وليس ثمة ماهو أسهل من ذلك . ولكن الروس لاينوون قتال الأفغان هذه السنة وإنما قد يتحالفون مع بعض هؤلاء الأمراء ويثيرون القلاقل . وقد يقدمون أنفسهم فى صورة حلفاء ضد الانجليز ، ويعدون باستقلال إقليمى كشمير وبيشاور إذا ثارت الهند . وسوف يصدقون الأفغان عندذاك .

راندولف : هل يكرهنا الأفغان أكثر مما يكرهون الروس ؟

جمال الدين : لم يلحق الروس أى ضرر بالأفغان . أما الانجليز فقد شنوا عليهم ثلاثة حروب .

راندولف : ولكن ألا ترى أن الروس أضروا الاسلام أكثر منا ؟

جمال الدين : لقد إلتهم الروس بعض المناطق مثل القرم وأرض الشراكسة وأخرى بين التركمان ، ولكن انجلترا دمرت الامبراطورية العظيمة فى دلهى ، وغزت مصر والسودان .

راندولف : إن أبناء المهاراتا (الهندوس فى وسط الهند وغربها) هم الذين دمروا امبراطورية المغول .

جمال الدين : لقد جاء المهاراتا وذهبوا . ثم غزا نادر شاه (امبراطور الفرس) الهند ولكنه كان مسلما . أما أنتم فقد بقيتم ودمرتم الامبراطورية . وهناك ثلاثة أسباب جعلت المسلمين فى الهند يضمرون لكم الكراهية أكثر مما يضمرونها للروس . وأول هذه الأسباب أنكم دمرتم امبراطورية دلهى ، وثانيها أنكم لم تدفعوا رواتب للأئمة والمؤذنين وخدم المساجد فى حين حرص الروس على ذلك . وأنتم ألغيتم ملكية الأوقاف ولاتصلحون المبانى المقدسة .

راندولف : نحن نقوم بإصلاح بعض المساجد .

جمال الدين : إنما تفعلون هذا لأنها قطع فنية لاتفعلونه من أجل الدين . أما السبب الثالث فهو أنكم تحرمون المسلمين فى الجيش من الرتب الكبيرة ، ولكن الروس لايحرمونهم .

راندولف : يوجد مسلمون كثيرون فى أعلى الوظائف فى ولايات الأهالى فى الهند .

جمال الدين : ولايات الأهالى ليست هى الهند البريطانية . ومالا يصل الى المعدة لاتهضمه . (وهنا ضحكنا)

راندولف : إذن ترى أن انجلترا تمثل خطرا على المسلمين أكبر من خطر روسيا .

جمال الدين : لارأى هذا . وماكان حديثى الا عن الماضى . فانجلترا من هذه الناحية أضرت بنا أكثر من روسيا ولكن الآن روسيا أكثر خطرا . فإذا بقى الروس ، لاأقول فى بنجده أو طلفقار أو ميروشك ، وانما أقول فى مرو ، لمدة خمس سنوات فلن تقوم قائمة لافغانستان ولاإيران ولاالا ناضول ولا الهند ، لأنها ستلتهم كل هذه البلاد . وقد أعلنوا أنهم سيجلون عن بنجده ، ولكن هذا عمل لاقيمة له لأنهم سيبقون فى مرو .

راندولف : هذا صحيح . ولكن بماذا تنصحنا ؟

جمال الدين : لابد أن تقيموا تحالفاً مع بلاد الاسلام . مع افغانستان وايران والترك والمصريين والعرب يجب أن تقصوا

الروس عن مرو وتعيدوهم الى بحر قزوين . وإذا شئتم أن تكونوا أصدقاء للمسلمين فعليكم أن تتركوا مصر ، لأنه لاخطر على مصر من الأمم الأجنبية . إن قبرص فى أيديكم ، وكذلك عدن ، فماذا تخافون ؟ حتى المهدى لاخوف منه عليكم ، لأنه إذا أقيمت حكومة إسلامية فى مصر فلن يشكل المهدى خطرا عندئذ . ومن ثمة عليكم أن تتحالفوا مع المسلمين . وعندذاك ، يصدقون أنكم أصدقاء .

راندولف : هل من الممكن أن نرسل قواتا أو ضباطا الى أفغانستان لمساعدة الأفغان على الروس ؟

جمال الدين : إذا أرسلتم قوات الى قندهار مثلا ، حتى بموافقة الأمير ، فسيكون من حق أى مسلم أن يلوذ بقمة جبل ويشعل ثورة ضدكم ، ويقول أنكم جئتم بادعاء الصداقة كى تستولوا على أرضه . وعندئذ سيصدقه الجميع . ومع ذلك يمكنكم ارسال ضباط ، بعض الضباط ، وهؤلاء لايستطيعون الاستيلاء على شيء ، ولكنهم سيكونون فى خدمة الأمير . ولكن تذكر أن الروس إذا أقاموا خمس سنوات فى مرو فسيكون ذلك بعد فوات الاوان ، لأنكم ستهاجمونهم عندذاك ، لاعن طريق أفغانستان ، وإنما عن طريق الجانب الآخر ، وعندذاك أيضا سيقوم العلماء (رجال الدين) بالدعوة الى الجهاد كى ينضم الناس الى صفوفكم ضد الروس .

لقد دامت (هذه) المحادثة نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم انصرف راندولف . لم يقل الكثير لجمال الدين ، ولكنه عبر لى ، وأنا أودعه الى الباب ، عن سعادته البالغة بصراحة الشيخ وصواب آرائه . ووعدنى بإرسال وولف لمقابلته ...

ومن الواضح فى هذا الحديث الذى لم يشغل تشرشل اكثر من دور المستفسر فيه أن الأفغانى كان ملما بأحوال السياسة وتقلباتها فى عصره . كما كان أميل الى القضايا الكلية لاالجزئية . فهو لايشغل نفسه بموت المهدى أو عدم موته ، وانما ينظر إلى المهدى كظاهرة قابلة للامتداد ، ويميل الى فلسفة الظواهر التى يتحدث

عنها ، ويحاول أن يستفز الانجليز كى يتحالفوا مع المسلمين بدلا من محاربتهم والاستيلاء على أوطانهم ، يدرك تماما أهمية الرجل الذى يحدثه فيلح ـ صراحة وضمنا ـ على ضرورة إنهاء العداء بين الانجليز والمسلمين وإقامة التعاون وبينهم والا تعرض الطرفان لطمع القوى الأخرى وعلى رأسها روسيا . بل إنه يطرح فى ذلك الوقت المبكر فكر الحكومة الاسلامية فى مصر وكرادع لخطر المهدى ، لأن الحكومة الاسلامية التى بدأ المهدى فى إقامتها فى الجنوب ستكون حزاما واقيا للحكومة الاسلامية فى الشمال .

يعود بلنت بعد أسبوع الى الأفغانى فيسجل فى مفكرته ماتلا ذلك من تطورات :

٢٩ يوليو

... ذهبت الى كرابيت (بيته الريفى) مع نبى الله (مثقف هندى مسلم) الذى سيعود الى الهند فى القريب كى يصدر صحيفة هناك . وقد أصبح مثل الباقين جميعا الذين أفسدتهم الحياة الانجليزية . وقد بذلت أنا وجمال الدين كل مافى وسعنا لاغرائه بالتخلص من هذه الفكرة بالذهاب الى الحج والكف عن ارتداء الملابس الأوربية . ولكنه لم يستجب . فالهنود الذين عاشوا فى انجلترا يبهرون بحياتنا وأساليبنا ويجدون من الصعب عليهم أن يعودوا الى وطنهم . وهم عامة يقعون فى غرام إمرأة إنجليزية ويهجرون أساليب قومهم . ولقد حدثته بحدة ولكن ذلك لم يفد بشىء . وقال جمال الدين : "ليس أسهل على الانسان من أن يصنع معروفا لنفسه أما إذا شاء أن يصنع معروفا لبلده فلابد أن ينكر ذاته "فقال نبى الله : «لاأريد أن أكون شهيدا . فأنا أرجو أن أحتفظ بملابسى الانجليزية وأقدر على ركوب الخيل ولعب التنس والتردد على الأندية عند عودتى» فقلت له : "قد ترتدى افضل ماعندك من ملابس انجليزية وتذهب الى الكنيسة اذا شئت يوم الأحد ، ولكن الانجليز فى الهند لن يستقبلوك ، وتخسر كل نفوذك

عند مواطنيك"

٣٠ يوليو

جاء وولف الى جيمس ستريت كما اتفقنا فى العاشرة والنصف . وقبل أن يرى جمال الدين تحدثت معه حول المسألة العامة فى مصر والسودان وتركيا . وقال لى أنهم (رجال الحكومة) يفضلون بالنسبة لمصر أن يحتفظوا بتوفيق (الخديو) فى الوقت الحاضر ، وأن اللورد سالسبورى (رئيس الوزراء الجديد بعد جلادستون) لم يقتنع بالموافقة بعد على عودة عرابى ، أما النقاط الأساسية التى ناقشها وولف مع جمال الدين فكانت تتصل بمدى إمكان اعتراف المهدى بخلافة السلطان (العثمانى) وقد أعلن جمال الدين أن هذا مستحيل بالنسبة للمهدى أو خلفائه ، ولكن ربما يقتنع كل من الطرفين بقبول الآخر ، مثلما فعل السلطان العثمانى وسلطان مراكش ، فى حالة جلاء الانجليز عن مصر واقامة حكومة اسلامية بها . ومن ثمة فلا خطر من السودانيين . فحركة المهدى دينية ولن يسمح له العلماء (رجال الدين) فى القاهرة بغزو مصر .

وتلا ذلك مناقشة مطولة حول الجلاء (عن مصر) فأعلن وولف أن بسمارك (مستشار ألمانيا) أعلن كتابة لوزارة الخارجية (الانجليزية) أنه يوافق على دخول الفرنسيين مصر اذا تركناها . ولن يسمح الفرنسيون للقوات التركية بالدخول . ولابد اذن من احتلالها على نحو ما . وبذلك يحتلها الفرنسيون . ولكن السيد (جمال الدين) رفض هذه الفكرة نظرا لأنه يعرف من فيرى (رئيس وزراء فرنسا) وسواه فى فرنسا أنه لن يحدث شىء من هذا القبيل . ومع ذلك فقد وافق الاثنان فى النهاية (وولف والسيد) على أنه من الممكن التوصل الى اتفاق مع السلطان إذا وافقت انجلترا على تحديد موعد للجلاء . ثم طرحت بعد ذلك مسألة تجارة الرقيق فى السودان . فقال جمال الدين أنه سيمنع اختطاف الأحباش وبيعهم . فهو قادر على ترتيب الأمور والعلاقات التجارية مع

انجلترا ومصر . وليس من الصعب اقناع السلطان بترتيبات معقولة فيما يتعلق بمصر - وقد اقترحت سفر جمال الدين الى القسطنطينية اذا دعت الضرورة الى ذلك وليس من الصعب أيضا ان يقترح السلطان (على الانجليز) اعادة عرابى . ومع ذلك أوضح وولف أنه لايمكن اقرار أى شيء بشكل نهائى الا بعد الانتخابات ، وأن مهمته الحالية هى الاستطلاع والاعداد لسياسة تتخذ . أما الانتخابات فستقرر امكان تحقيق هذه السياسة . وقد دامت محادثتهما ساعة ونصف الساعة .

٤ أغسطس

... حدثنى دراموند وولف مرة أخرى عن فر جمال الدين الى القسطنطينية . وقال : انه (الأفغانى) متشدد فى آرائه أكثر من اللازم فيما يتعلق بعدم تسليم المهدى بخلافة السلطان . ومع ذلك سوف يرسل فى طلبه اذا احتاج إليه ، وسيتصل بى عن طريق راندولف الذى يتعامل معه بشفرة خاصة . وهذه سمة جديدة فى دبلوماسيتنا .

٥ أغسطس

... بعث دراموند وولف تلغرافا من بورتسموث (الميناء المطل على القناة الانجليزية) طالبا رؤية جمال الدين مرة أخرى .

٦ أغسطس

نزلت الى لندن مبكرا مع جمال الدين وأجرينا حديثا مطولا مع دراموند وولف . وهو (وولف) يؤيد تماما فكرة الحلف التركمانى الايرانى الأفغانى ، ولكنه يقول أنه لن يستطيع التحدث عنها الى السلطان الا إذا مسها الحديث لأن ذلك من اختصاص السفير (الانجليزى) ولكنه سيحدثه عن مصر . وقد أبدى (وولف) لهفة كبيرة على معرفة كيفية التوصل الى اتفاق بين السلطان والمهدى . فهل يقبل المهدى الاعتراف بالخلافة ؟ قال جمال الدين ان الوقت لم يحن بعد لضرورة اقرار هذه النقطة ، أو حتى اثارتها . فما يهم

السلطان حقيقة هو تحديد مدة الاحتلال الانجليزى . فقال وولف أن هذا أمر ممكن ، وانه سيقترح أن يتعاون السلطان (مع الانجليز) فى اقامة نظام مستقر للأمور اعداداً لجلاء الانجليز . وعلق جمال الدين على هذا بأن كل شىء يمكن ترتيبه بشكل مرض ، ولايهم ما اذا كانت القوات التى ستشكل الحامية البديلة تركية أو انجليزية .

وأعقب ذلك جانب كبير من الحديث عن مدى ضرورة سفر جمال الدين الى القسطنطينية وقت وجود وولف بها . وكانت النقطة الأساسية تتعلق* بمدى ادراك السلطان لهذا التحرك على وجهه الصحيح . فقال جمال الدين ان السلطان لايعرف عنه الا أنه عدو للسياسة الانجليزية . واذا لم يشرح وولف الوضع لجلالته فسوف يتصور أن جمال الدين جاء الى القسطنطينية كى يحبط مهمة وولف . ومع ذلك قال وولف أن من الصعب عليه حماية جمال الدين أو الظهور بأنه على صلة به . وهنا أثيرت أيضا مسألة التمويل ولكنى عرضت تزويد السيد بأى مبلغ من المال يحتاجه حتى لاتثار أى أسئلة غير مريحة . وشرح وولف أنه لن يحيط اللورد سالسبورى بأى شىء حول السيد أو ترتيباته معى . وقال : ان سبب ارسالى هو أننى مستعد لتحمل مسئوليات من هذا النوع قد يرفضها غيرى . وسوف تكون لى مع راندولف شفرة خاصة . واذا أردت السيد أو كان عندى شىء آخر أريد إبلاغه لك فسيكون ذلك عن طريقه (راندولف) ومع ذلك أوضح وولف مرة اخرى أنه يتوقع امكان انجاز أى شىء بشكل نهائى قبل نهاية الانتخابات . فالفرنسيون يعارضون بشدة ارسال قوات تركية الى مصر . وبسمارك لن يبدى أى تأييد حازم الا بعد الانتخابات .

تحدثنا أيضا عن اعادة عرابى وقال جمال الدين انه من السهل جدا اقناع السلطان بالفكرة واقتراحها . اذ تكفى لتحقيق ذلك كلمتان منه وكررت هذا القول لوولف ،بعد مغادرته بيتى ، فى نادى كارلتون . ولكنه قال : "ليس من المفيد على الاطلاق الآن أن نثير مسألة عرابى ، ولكن من الممكن أثارتها بعد الانتخابات "فاللورد

سالسبورى يحتاج الى المشاورة فى هذا وغيره من الأمور .
٧ أغسطس

... كان دراموند أيضا موجودا بالنادى ، فتحدثنا مرة أخرى عن زيارة جمال الدين الى القسطنطينية وكانت آخر كلماته هى أنه سيكتب الى راندولف أو يبرق له ثم يتولى الآخر نقل الأمر إلىّ .
١٣ أغسطس

... عند عودتى الى البيت وجدت رسالة مهمة من تشرشل . وتضم برقية محلولة الشفرة من وولف يطلب فيها أن يلحق به السيد (جمال الدين) فى القسطنطينية . وقد تألق السيد هنا تألقا شديدا خلال الأيام العشرة الماضية . وقدم لنا أثمن معلومات عن ماضى بلاده والبلاد الأخرى . فهو يقول ان نادر شاه ابن لأحد التجار فى مدينة قلعات . وقد ثار ضد الحكم الأفغانى وطرد الأفغان من ايران ، ثم غزا أفغانستان والهند العليا . وكان هو الذى وهب الخيول العربية للتركمان ، ومنها جاءت السلالة التى يملكونها حاليا .

كان ينزل عندنا ابن خالى آرثر تشاندلر ، وهو عالم دينى فى أوكسفورد أصبح منذ ذلك الوقت قسا من قسس المستعمرات . فرتبت له أن يتناقش مع جمال الدين حول أسس الدين . وسارت المناقشة بلغة فرنسية باردة ولكن بروح متحمسة من جانب السيد الذى فاز فى الجدل بلا منازع
١٤ أغسطس

نزلت الى لندن مع السيد . وذهبت على الفور الى مكتب الهند (وزارة شئون الهند) حيث وجدت راندولف فى أشد حالات الاكتئاب والارهاق بعد الجلسة التى كان موعدها اليوم . ومع ذلك فسيذهب الى اسكتلندا غدا . وقد أبلغته بأن السيد على استعداد لبدء رحلته فورا ولكنه يصر على أن يلمح وولف للسلطان مباشرة أو بطريق غير

مباشر الى أنه (الأفغانى) لم يعد عدوا للانجليز ، ويرجو الايبدأ وولف مفاوضاته قبل وصوله وألا يحاول معالجة المسألة المصرية منفصلة عن مسألة الحلف الاسلامي . وقد ادرك راندولف ببديهته الحاضرة المعتادة هذه النقاط فى الحال . فكتب الى وولف برقية بما معناه : "جمال الدين يسافر الى القسطنطينية يوم الأحد . ولكنه يقول أن السلطان لايعرف عنه سوى أنه عدو الانجليز . فمن اللازم التلميح الى أنه أصبح صديقا لنا . وهو يرجو الا تفتح المسألة المصرية مع السلطان منفصلة عن المسألة الأكبر ، وهى الحلف الاسلامى . ويعتقد أنه سيخدمك فى المسألة الأخيرة خدمة جليلة"

وقد قابلت ابراهيم (المويلحى) أيضا . وكنت أرجو أن أراه قبل ذلك لأنه يؤيدنى ضد السيد تأييدا كبيرا ، فضلا عن أنه أجرأ منه . وأرى أن يسافر الاثنان فى الحال دون انتظار رد من وولف . فلا أحد يستطيع التنبؤ بما قد يحدث من تغيير فى الرأى . ان الكرة الآن عند اقدامنا ويجب أن نلعبها بشجاعة . ولكنى أخشى أن يفزع وولف من البرقية التى أصر السيد على ارسالها . ولو كان الأمر بيدى لوجب أن يسافر بلا شروط ، لأن وولف لايستطيع أن يرفض حمايته عند وصوله . ولكن ، سنرى .

١٥ أغسطس

- وصلت برقية من بيث (مدينة صغيرة فى النمسا) تفيد بأن وولف أجل سفره حتى يوم الثلاثاء . وهذا سيتيح لجمال الدين وقتا للحاق به هناك وسيسافران معا بالقطار ، أما ابراهيم (المويلحى) فيسافر الى فارنا (مدينة فى بلغاريا) وهناك ينتظر الأوامر الأخرى .

جئت الى لندن لهذا الغرض . وقد تأجل البرلمان أمس . ولندن خالية . أفزعنى أن أجد خطابا فى جيمس ستريت من مور - سكرتير راندولف - يتضمن تلغرافا من وولف - كما توقعت بالضبط . وفيه يقول انه غير رأيه فيما يتعلق بجمال الدين ، وان من

الأفضل الا يسافر (جمال الدين) حتى يبعث بتلغراف آخر من القسطنطينية . وذهبت أولا الى مور في مكتب الهند ، وتباحثت معه في الأمر ووافقني على أن عدم سفر السيد خسارة ، وأنه يحسن بنا أن نرد بتلغراف نقول فيه ان الوقت قد فات على ايقافه عن السفر . ولكنه لن يفعل أي شيء بدون أمر وولف . ولذا ذهبت الى كونوت بلاس (حيث بيت تشرشل) وقابلت راندولف .

كان مريضا يعاني من احتقان خفيف في الرئتين ولكنه يقول ان حالته أفضل اليوم . وبحثنا الموضوع بكامله . ولكني لم أستطع حثه على أن يدعني أرسل السيد ، ولذا توقف الموضوع كله . والجانب المتعب في الأمر هو أن فائدة جمال الدين العظمى لنا كانت قد بدأت بالفعل . ولكن لافائدة الآن لقد حجزت تذكرتين للسيد وابراهيم وسلمتهما ١٠٠ جنيه لنفقات الرحلة . بكل هذا ذهب بلا فائدة .

ظللت أعتقد أن تغيير وولف لرأيه في هذه المناسبة أحبط نجاح مهمته ، وأن فشل تلك المهمة كان يرجع الى أنه بدأها بالطرق المعتادة في الدبلوماسية الانجليزية ، بدون ذلك التأييد المعنوي الذي كان من الممكن أن يتيحه له السيد جمال الدين عن طريق الجمعيات السرية في القسطنطينية وغيرها

وهكذا انتهت هذه الجولة من المشاورات بين الأفغاني والانجليز نهاية مفيدة لهم . فقد حصلوا منه على بعض المعلومات والنصائح المهمة . وأبدى لهم استعداده للتعاون معهم على أساس شروط معينة أهمها الجلاء عن مصر والسودان ومصالحة السلطان العثماني ومحالفة المسلمين . وقد أبدى هذا كله بعزة وكرامة .

فكر فى إعادة الخلافة الى العرب
ثم وضعه السلطان فى قفص من ذهب

ظل بلنت يأمل أن تسير الأمور فى مجراها الذى رتبه لها حتى آخر لحظة . وظل الأمل يراوده فى أن يبعث وولف فى آخر لحظة ببرقية يستدعى بها الأفغانى . وبقى الأفغانى ضيفا على بلنت ومرة أخرى نتابع ماجاء فى مفكرة بلنت بعد سفر وولف وحده :

٢٧ أغسطس

وصلتنى مذكرة من مور (سكرتير تشرشل) يطلب فيها أن أذهب لمقابلته . وكان راندولف قد أبلغه أن يقرأ علىّ فقرة من خطاب لوولف (أرسله وهو فى طريقه الى العاصمة العثمانية) وكانت الحقيقة أنه فى وضع دقيق فيما يتعلق بمهمته لدرجة أنه من المخاطرة أن يظهر بأنه على معرفة بجمال الدين . وقال ان جمال الدين يعارض خلافة السلطان على السودان ، وانه إذا اعترف بأنه صديقه فقد يظن السلطان عند ذلك أن لديه مخططا ما على أساس مالديه من ادعاءات روحية . ومن ثمة فهو (وولف) لايريد أن يخاطر بذكر اسم الأفغانى . وهذا كله كلام فارغ فمسألة خلافة السلطان لاتحتاج الى ان تثار مطلقا . وجمال الدين ليس معروفا بأنه يعارضها . فقد كانت صحيفته ـ على العكس من ذلك ـ عالية الصوت فى تأييد حقوق السلطان . ومع ذلك فقد رفض السيد السفر الى القسطنطينية بدون اعتراف ما من جانب وولف ، لأنه

يقول ان نفوذه سيقضى عليه فى كل مكان اذا أغلق السلطان بابه فى وجهه . ولكنى سأقابل راندولف غدا .

٢٨ أغسطس

ذهبت الى راندولف فى الواحدة والنصف فى مكتب الهند . يبدو مرهقا ومريضا ، لايزال مضطرا الى البقاء فى المدينة . ولكنه يتحدث عن ذهابه الى اسكتلندا فى الأسبوع القادم . وأنا أحس بالاقتناع بأنه لن يعيش سنتين أخريين أو أنه سيضطر الى اعتزال الحياة العامة . وقد تباحثنا حول مسألة جمال الدين . ولكن مادام جمال الدين يرفض الذهاب الى القسطنطينية بدون تأييد من وولف ، ومادام وولف يرفض الالتزام بجمال الدين فقد اتفقنا على أن يظل الوضع كما هو عليه ...

٤ سبتمبر

تلقى ابراهيم بك (المويلحى) من اسماعيل جودت رسالة أخرى ضاغطا عليه كى يذهب لمقابلة السلطان . وتقرر أن يسافر . وقد سمع السلطان أن جمال الدين قابل أحد الوزراء (الانجليز) فأرسل الى ابراهيم بالحضور لمعرفة الحكاية . وهو يريد جمال الدين أيضا ، ولكن السيد يقول أنه سينتظر حتى يرسل اليه أما بالنسبة لابراهيم فلا خطر عليه . وسوف أطلب منه الاتصال بوولف وأقوم بابلاغ راندولف بذلك .

٦ سبتمبر

سافر ابراهيم فى الليلة الماضية الى القسطنطينية وسيبقى جمال الدين فى لندن .

٢٠ سبتمبر

نشبت ثورة فى اقليم روميليا (التركى) بتدبير من روسيا ردا على بعثة وولف ، أو بالأحرى تضامنا مع ماستفضى عنه الانتخابات

هنا . وكان جمال الدين يقول دائما انهم سيتحركون قبل شهرين من الانتخابات . (الانجليزية) وها قد حدث ...

٢٣ سبتمبر

وصلت رسالة من ابراهيم يروى فيها ماحدث له . يقيم الآن مع جودت . وقد ذهب الى القصر ، وتقرر أن يقابل السلطان بعد عيد الأضحى . الجميع غاضبون منه لأنه لم يأت قبل ذلك . وسوف يرسل السلطان مبعوثا الى جمال الدين للتشاور .

٢٤ سبتمبر

تباحثت حول مسألة الروميليا كلها مع جمال الدين . واتفقنا على أن النمسا ، لاروسيا ، هى التى شجعت الحركة الحالية . وقلت للسيد أنه من غير المفيد ضمان تركيا الأوربية تحت حكم السلطان ، وان اللورد سالسبورى لن يخاطر بضمانها . أما هو (الأفغانى) فلا يوافق على هذا الرأى ، ولكنه يرى أنى محق على أى حال . توجد مذكرة لجوردون كتبها سنة ١٨٨٠ ويوصى فيها بتجزئة الامبراطورية العثمانية ، وبحيث تذهب مصر الى انجلترا ، وسوريا (الشام) الى فرنسا ، وأرمينيا الى روسيا ، وتركيا الأوربية الى الدول المسيحية المستقلة . ويعتقد جمال الدين أن وولف له يد فى الحركة الروميلية . ولكنى لاأرى ذلك .

٢٨ سبتمبر

حضر منيف باشا (مبعوث السلطان) الى لندن وقابل السيد ويريد أن يقابل تشرشل . كتبت حول هذا الموضوع .

٦ اكتوبر

كان فريد بك (أحد زعماء حركة الدستور العثمانية) قد كتب الىّ يطلب مقابلتى فجاء اليوم على الغداء . وكان معنا جمال الدين . وبسبب وجوده لم يتناول فريد بك سوى العموميات . ولكننا انتقلنا

بعد الغداء الى الطابق العلوى ، فلمْ يكشفْ عن الموضوع الحقيقى الذى جاء من أجله الا بعد كثير من اللف والدوران .

(وخلاصته سوء حال الامبراطورية وتداعيها وضرورة عمل شيء ، أى القيام ـ كما يقول ـ بإعادة النظام الدستورى الذى وضعه مدحت (باشا) وسلب السلطان سلطاته المطلقة ، والا فالثورة على الأبواب . ولكنهم يخشون روسيا وتدخلها العسكرى . ويرى أن بسمارك يعارض فكرة الحكومة الدستورية ، ولكن ربما أيدها سالسبورى . وهو يريد معرفة ماإذا كانت الحكومة الانجليزية ستسمح بالتدخل الروسى أو تغيير السلطان . فقد يرمى السلطان نفسه فى أحضان الروس . وعندئذ هل تقف انجلترا مكتوفة اليدين ؟ وطلب من بلنت أن يتحسس الرأى (الحكومى) فى سرية وكتمان لأن التجسس أصبح من الخطورة بحيث يسرى على الولد من أبيه والأخ من اخيه (فى تركيا) وطمأنه بلنت بعرض الموضوع على تشرشل ، ولاسيما ان بعثة وولف لم تصل الى نتيجة . وأوضح فريد لبلنت أنْ السفير التركى فى بريطانيا (موسورس باشا) لايعلم شيئا عن الموضوع فضلا عن أنه خائن فى نظره)

ورجانى (فريد بك) ألا أتحدث عن الموضوع الى جمال الدين لأنه غير حكيم ، فضلا عن أنه فقير ، قد تغريه الضرورة ذات يوم . وقد رتبت مع مور مقابلة راندولف غدا .

٧ اكتوبر

فى الثانية عشرة قابلت راندولف بمكتب الهند . ولما وجدت أمور وولف راكدة أطلعته على ماسمعته دون أن أذكر المصدر بالطبع ، ولكنى اكتفيت بأنه شخص عالى المكانة لايتصل بجمال الدين بأى شكل من الأشكال ، أو بأى من أصدقائى الآخرين (روى بلنت الموضوع وسمع رأى تشرشل) ... ثم روى لى شيئا عن التقدم الذى أحرزه وولف . فقد انتهى الى ضرورة أخذ الحزب العربى فى القسطنطينية فى الاعتبار . وهو (وولف) مندهش من أن ابراهيم لم

يتصل به حتى الآن . فقلت لعله ممنوع بأمر السلطان . وقد وصلني اليوم خطاب من ابراهيم يقول فيه أنه كان قد أرسل للسلطان تقريرا كاملا عن أعماله في انجلترا وعني وعن الآخرين . ولكن السلطان نسي كل مايتعلق بوولف وانجلترا وكل شيء عدا روميليا .

٨ اكتوبر

تحدثت حديثا مطولا مع جمال الدين عن التوقعات المتعلقة بالقسطنطينية والخلافة ، وهو يؤيد المهدى او خليفة المهدى الذى سيحل محل السلطان ، أو الشريف عون أو امام صنعاء - فأحد هؤلاء سيأخذ الأن - فى رأيه - بزمام الأمور . ولكن القسطنطينية لابد أن تظل مقر الخلافة ، مثلها مثل الجزيرة العربية أو أفريقيا ، فى كونهما مجرد أماكن للنفى . وقال لى ضمن أشياء أخرى أنه هو نفسه الذى اقترح على الشريف حسين أن يطالب بالخلافة ولكن الحسين رد بأن ذلك أمر مستحيل بدون تأييد مسلح ، وان العرب لن يتحدوا مطلقا الا تحت راية الدين .

ان جمال الدين متحمس جدا الآن للذهاب الى الشرق مرة أخرى . ولكنه يقول انه لن يذهب الى القسطنطينية مالم يبعث اليه السلطان . وقد اتفقنا فى حالة عدم فوزى فى الانتخابات عن دائرة كامبرول أن نذهب معا الى امام صنعاء فى اليمن وأن يثير مسألة الخلافة على النحو الذى كان فى نيتى منذ أربع سنوات . وسألته عما اذا كان يعتقد أن السلطان قد اغتال الحسين فقال : كلا ، ولكن ربما فعلها أحد الباشوات (الولاة) ...

١٢ اكتوبر

عدت الى لندن . أعلن أن بعثة دراموند وولف قد نجحت . وتقرر أن يرسل السلطان ممثلا عنه الى مصر بصحبة وولف . أتوقع أن يكون ابراهيم بك قد خدم فى تحقيق هذا المشروع .

٢١ اكتوبر

فى المساء عقدنا اجتماعا كبيرا بقاعة أوكلى (فى لندن) لاعضاء الوفد الهندى . وجئنا بجمال الدين ليلقى خطابا بالعربية لم يفهمه أحد فى القاعة ، ولكنهم صفقوا طويلا له .

٢ نوفمبر

كتب راندولف لى قائلا ان اللورد سالسبورى لن يبدى لى على وجه اليقين أى رد مشجع حول عرابى ...

ظهر جمال الدين هذا الصباح مرة أخرى . وكان قد تغيب بشكل غامض نحو يومين أو ثلاثة عن جيمس ستريت . فقد ترك البيت فى أعقاب مشادة صاخبة وقعت فى غرفته يوم الخميس بين اثنين من أصدقائه الشرقيين ، وهبى بك (أخ غير شقيق لابراهيم المويلحى) وعبد الرسول (رجل من كشمير عمل بالصحافة فى لندن) . ويبدو أنهما تشادا حول السياسة أو الدين وانتهى الأمر بأن ضرب كل منهما الآخر على رأسه بالمظلة . وكان على أن أطلب منهما مغادرة البيت فتبعهما السيد .

ان الانسان لابد أن يضع حدودا على أى حال . وقد اقترحت الآن على السيد أن ينتقل الى مكان اخر . فقد أقام عندى ثلاثة أشهر وهى مدة الضيافة العربية كاملة .

ملاحظـــة :

"كانت هذه آخر مرة رأيت فيها السيد الطيب فى ذلك العام . فقد غضب من معاملتى لصديقيه ، وغضب أكثر لخيبة أمله فيما يتصل ببعثة دراموند وولف . وغادر انجلترا بعد بضعة أيام غاضبا على كل ماهو انجليزى ، نافضا نعليه من غبار الانجليز . ثم ذهب الى موسكو حيث انضم الى كاتكوف زعيم الوحدة السلافية المعروف فى حملة ضد الامبراطورية البريطانية . ومن روسيا ذهب الى ايران وافغانستان لذات الهدف . وبعد كثير من التحريض وكثير من العنت من جانب حكومات هذه البلدان جميعا حمل رحاله

فى النهاية وذهب الى القسطنطينية ، حيث وجدته بعد سنوات طوال مستقرا فى ملحقات قصر يلدز ، نصف مسجون ونصف مدعوم من السلطان . وقد مات هناك بالسرطان ، وان كان بعضهم يظن انه مات بالسم عام ١٩٠٢ (الصواب ١٨٩٧) ولم يعتن به كما سمعت سوى خادم مسيحى .

لقد كان جمال الدين رجلا عبقريا اكتسبت تعاليمه نفوذا من الصعب التقليل منه على حركة الاصلاح المحمدى خلال السنوات الثلاثين الماضية . واشعر بأنى قد شرفت باقامته ثلاثة اشهر تحت سقف بيتى فى انجلترا ، ولكنه كان رجلا برى الطباع ، اسيويا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ليس من السهل ترويضه على الأساليب الأوربية . وسوف اروى عن زيارتى التالية له فى القسطنطينية فى مكانها . »

(عند هذا الحد انتهى ذكر الأفغانى فى كتاب « جوردون فى الخرطوم » لبلنت ، ولم يبق سوى رسائلهما المتبادلة فى ملحقات الكتاب ، وقد اشرنا اليها من قبل ، ولكن قبل ان ننتقل الى الزيارة التى اشار إليها بلنت نجد من المهم ان نعلق على تلك الجولة الأخيرة التى مرت بها علاقة بلنت بالأفغانى . ومن الواضح ـ كما رأينا ـ أن الأفغانى كان يسعى إلى تحرير الهند ومصر والسودان وأفغانستان من الانجليز مقابل التحالف معهم على أساس الصداقة . وكان يسعى فى الوقت نفسه إلى إعادة عرابى من منفاه وتأسيس خلافة عربية فى أراضى العرب داخل الامبراطورية العثمانية . ولكن هذا السعى كله لم يواجه عند الانجليز ترحيبا عمليا . بل أنهم نالوا من الأفغانى أقصى مايستطيعون من معلومات وأفكار واقتراحات ثم تركوه . وقد اكتشف هو نفسه هذا الغدر فى النهاية فقطع الهدنة التى وضعها مؤقتا فى صراعه مع الانجليز وعاد إلى سابق نضاله ضدهم . وليس من الصواب أن نتهمه هنا بالتعاون مع الانجليز . فقد كان واضحا محتفظا بكبريائه فى تعامله معهم . ولكن اشتغاله بالسياسة فى ذلك الوقت كان ينقصه التعاون

الحقيقى مع الأطراف المعنية مثل حكومات البلاد التى ذكرناها ، وهى حكومات كانت تعاديه فى السر والعلن . ولم يكن لديه أى تفويض من أى حكومة للتشاور أو التباحث باسمها ، وهذا ماأدركه الانجليز واستفادوا منه .

ومع ذلك فمن الواضح أيضا أن زيارة الأفغانى للندن قد أصابته بخيبة الأمل ، لا فى الانجليز وحدهم وانما فى صديقه بلنت أيضا . وقد انقطع الاتصال بينهما عقب ذلك نحو ثمانى سنوات . وجاء الأفغانى إلى لندن مرة أخرى عام ١٨٩١ ولكنه لم يسع إلى رؤية صديقه . ولكن بلنت سعى إلى رؤيته فى ابريل ١٨٩٣ حين زار عاصمة الخلافة التى رحل إليها الأفغانى من لندن بتأثير إغراءات السلطان .

كتب بلنت فى مفكرته بالجزء الأول من يومياته أنه زار الآستانة فى ابريل ١٨٩٣ وعلم من ابراهيم المويلحى أن أحوال الأفغانى على مايرام و « أن السلطان عرض عليه جميع الرتب والنياشين ولكنه رفضها بحكمة . وفى اليوم التالى رده كبير التشريفات عن الحفل المقام فى القصر بمناسبة العيد ، ولكن جمال الدين لم يأبه به وشق طريقه حتى اجتذب انتباه السلطان . وعند ذاك طلبه السلطان وسمح له بالوقوف قريبا منه خلف كرسى العرش بل جعله أقرب إليه من كبير الخصيان . وهكذا فإن جمال الدين هو الشخص الذى يلتمس عنده المعروف ، وسأزوره غدا . (٢٦ ابريل) غير أننى نسيت حكاية المظلة فى الغرفة الخلفية فى جيمس ستريت . ياله من غبى دراموند وولف حين غير رأيه فى فينا ، ولم يصحب السيد معه إلى القسطنطينية سنة ١٨٨٥ على النحو الذى رتبت ضرورة سفره معه ! كان سينجح فى معاهدته وفيما فشل فيه »

وقد كتب بلنت هذه الفقرة فى يوم ٢٤ ابريل . ولكنه لم يزر الأفغانى إلا فى ٢٦ ابريل . وكان قد وضع فى خطته أن يقابل السلطان ، ووجد فى الأفغانى عونا على تحقيق رغبته .

نعود إلى مفكرة بلنت :

٢٦ ابريل ١٨٩٣

فى الثالثة (بعد الظهر) ذهبت مع جوديث (ابنته) إلى نيشا نطاش فى المسافرخانه ، وهو المقر الرسمى لكبار الزوار المتصلين بيلدز (القصر السلطانى) حيث يعيش جمال الدين . وقد استقبلنا الأفغانى العجوز بذراعين مفتوحتين ، وقبلنى على وجنتى داخل غرفة مليئة بأتراك محترمين ، وجعل جوديث تجلس فى المقعد الرسمى ذى المسندين . وقدم لنا شايا وقهوة ، واحتفى بنا ساعة ونصف الساعة . وكانت آن (زوجة بلنت) قد كتبت له اعتذارا قصيرا بالعربية قرأه على الحاضرين مرتين أو ثلاثا مبديا إعجابه الشديد بأسلوبها وسلامة لغتها . ثم دار بيننا حديث طويل فى السياسة ، بعضه بالعربية وبعضه الآخر بالفرنسية التى يتحدثها جمال الدين بطلاقة . وكان ابراهيم المويلحى حاضرا ، ولكن الآخرين لم يفهموننا (فقليل من الأتراك من يعرف العربية) وسألنى جمال الدين عن رأيى فى كثير من الشخصيات فى مصر مثل الخديو (توفيق) ورياض (رئيس الوزراء) ومختار (ممثل السلطان) وتجران (وكيل الخارجية الأرمنى) وشرحت له الموقف فى انجلترا أيضا . وكان هو قد زارها لبضعة أشهر فى العام الماضى وخرج بأفكار غير صحيحة ـ ومنها أن الجلاء عن مصر كان سيتحقق لولا انقلاب الخديو (على الانجليز) ولم يفهم أن حزب الأحرار الانجليزى قد خضع منذ مدة طويلة لروزبرى . ولم نتحدث عن الأحوال هنا (فى تركيا) فيما عدا أن السلطان سيؤيد عباس (الخديو) بلاشك مادام يعارضنا فى مصر ، وان عبدالحميد (السلطان) لن يطالب بأى تدخل فى الحكم هناك .

كانت الزيارة مرضية فى مجموعها . ويبدو أن فرصتى للقاء السلطان بقصر يلدز كبيرة ، ولكنى أبلغت جمال الدين بأنى لاأستطيع التأخر عن يوم الاثنين" .

ولم يستطع بلنت أن يقابل السلطان على أى حال . اذا طلب جمال الدين مهلة اسبوع حتى يحصل من القصر على موعد

للمقابلة ، ولكن بلنت أصر على السفر . فلما فشلت المساعى لاتمام المقابلة وعد الأفغانى صديقه بإعادة ترتيبها خلال الصيف . ومع ذلك رحل بلنت عن الأستانة غير نادم على المقابلة ولا راغب فيها .

غير أن ذكر الأفغانى لم يرد كثيرا بعد ذلك . بل لم يرد أكثر من مرتين عابرتين ضمن أشياء أخرى كان بلنت حريصا على تدوينها فى مفكرته . أما المرة الأولى ففى ٧ ديسمبر ١٨٩٥ وكان بلنت فى القاهرة فسجل بعض أخبار الأستانة التى وصلته عن طريق ابراهيم ابن عبدالله بن ثنيان بن سعود النجدى . ومن هذه الأخبار أن "جمال الدين لم يعد يتردد على القصر" ، وأما المرة الأخرى ففى ١٦ ديسمبر ١٨٩٥ حين قابل بلنت الخديو عباس (حلمى) الذى حدثه عن رحلته الى الاستانة خلال صيف ذلك العام وكيف أنه "رتب ذات مرة أن يقابل الشيخ جمال الدين على انفراد فإذا بجاسوس (للسلطان) يتتبعه عن قرب لدرجة أنه (أى الخديو) استدار نحوه وضربه ، وأرسل الى القصر رسالة بأنه سيطلق النار على أى شخص يضايقه مرة أخرى"

ومع ذلك كله يستوقف المتتبع لعلاقة بلنت والأفغانى أن الأول لم يذكر شيئا فى حينه عن وفاة صاحبه فى مارس ١٨٩٧ ، مع أنه كان يذكر الكثير عن أناس أقل شأنا فى الغرب والشرق . وليس من الممكن أن نرد ذلك الى أنه لم يعرف خبر وفاته . فقد عرف الخبر فى القاهرة عقب وفاة الأفغانى بأيام . وكان بلنت على صلة مستمرة بمحمد عبده ، ودائم التسجيل لمحادثاتهما شبه اليومية أثناء وجوده بالقاهرة ، ولكن محادثاتهما لم تتطرق الى موت الأفغانى ولا الى مصرع شاه ايران الذى سبقه بأشهر خمسة ويبدو أن فى الأمر سرا ، فلا بلنت كتب يرثى صديقه ولا محمد عبده كتب يرثى أستاذه . ورحل الصديق والتلميذ بعد ذلك دون أن يكشف عن شىء من هذا السر

غير أنه حدث عام ١٩٠٩ أن كان المستشرق الانجليزى ادوارد براون يستعد لانهاء كتابه الضخم "الثورة الايرانية" فأرسل الى

بلنت يستكتبه معلوماته ورأيه عن الافغانى . ورد بلنت برسالة مسهبة رجع فى معلوماتها الى يومياته . ونقتطف هنا منها مالم يرد فى تلك اليوميات التى نقلناها من قبل . فقد ذكر بلنت لقاءهم الأول فى لندن فى ربيع ١٨٨٣ ثم انتقل الى ماتلا ذلك من لقاءات ، وكيف كتب له الأفغانى رسائل توصية لأصدقائه فى الهند .

يقول بلنت :

"أثبتت الخطابات التى أعطانى اياها الشيخ انها على جانب كبير من الفائدة بالنسبة لى فقد وجدته علما فى كل مكان من الهند . وفى كلكتا كان ثمة عدد من الطلاب المسلمين الشباب كرسوا أنفسهم تماما لمبادىء الجامعة الاسلامية فى الاصلاح الحر ، وكذلك كانت الحال فى المدن الكبيرة الأخرى فى الهند الشمالية .

"لقد كان خصما للحكم الانجليزى بجماع قلبه ، ولكن دون أى تحيز متعصب فى الوقت نفسه . وكان فى مقدوره أن يرحب بشروط عادلة من الاتفاق مع انجلترا ويعتقد أن هذا الاتفاق أمر ممكن . وقد ثبت لى هذا فيما بعد عند عودتى الى أوربا سنة ١٨٨٤ ".

وينتقل بلنت الى الحديث عن صدى رحلته الى الهند عند الأفغانى ورأيه فى مشكلة جوردون فيقول : "سره نجاح رحلتى الهندية ، وحثنى على بذل جهود أخرى فى سبيل الاسلام . وكانت مهمة الجنرال جوردون فى الخرطوم قد أدت الى اثارة كبيرة فى انجلترا والقاهرة على السواء . وسعيت اليه طلبا للنصح والعون حول امكان ارسال وفد للصلح الى المهدى الذى كان على اتصال به تقريبا ، وكذلك حول امكان تدخله للتأثير على انسحاب جوردون ، فأبدى ترحيبه للمعاونة فى هذا المشروع فى حالة أن يطمئن الى حسن نوايا وزارة خارجيتنا . وعند وصولى الى لندن قمت بالاتصال بجلادستون فى هذا الشأن . وأعتقد أن جلادستون كان يرحب بأن يستفيد بمعونته . بل ان الأمر مضى الى أبعد من ذلك حين عرض على مجلس الوزراء . ولكن قضية الصلح لم تكن

فى مخططات وزارة الخارجية فانتهى الأمر برفض العرض .
ويفسر بلنت تطورات الأحداث بعد ذلك فيقول :
"وفى السنة التالية ، ١٨٨٥ ، كان جلادستون قد ترك الوزارة ، وأصبح اللورد راندولف تشرشل ـ الذى كنت على علاقة ودية به ـ وزيرا لشئون الهند ، فأقنعت جمال الدين بالمجىء الى لندن لمقابلته بغرض مناقشة شروط التوصل الى حلف بين انجلترا والبلاد الاسلامية . ونزل عندى ضيفا لمدة تزيد على ثلاثة أشهر ، بعضها فى كرابيت (ريف انجلترا)وبعضها الآخر فى لندن ، حيث أتيح لىّ أن أعرفه معرفة ودية وثيقة . وقدمته الى العديد من أصدقائى السياسيين ، ولاسيما تشرشل ودراموند وولف . وأحتفظ فى بيتى بملاحظات شيقة حول محادثاته معهما فى بيتى . وقد تم ترتيب أن يسافر مع وولف الى القسطنطينية ، فى مهمته الخاصة لدى السلطان ، بقصد أن يمارس نفوذه على بطانة عبدالحميد الداعية الى الجامعة الاسلامية ، حتى يمكن التوصل الى تسوية تتضمن الجلاء عن مصر والتحالف بين انجلترا وتركيا وايران وأفغانستان ضد روسيا . وفى آخر لحظة للأسف تحلل وولف من التزامه بأخذ السيد معه . وأنا أعزو (جزئيا على الأقل) لهذا التغيير فى الرأى المصاعب التى واجهتها بعثة وولف وفشلها فى النهاية .وقد شعر السيد بالاساءة الشديدة نتيجة التخلى عنه ، لأن تذكرته الى القسطنطينية كان قد تم حجزها . ومكث بعد ذلك بضعة أسابيع فى لندن بلاعمل ثم غادرها فى النهاية الى موسكو غاضبا مستاء حيث تعرف بكاتكوف وألقى بنفسه داخل المعسكر المضاد الذى يناصر التحالف بين روسيا وتركيا ضد انجلترا"
ثم ينتقل بلنت الى المرحلة الأخيرة فى علاقتهما بعد انقطاع ثمانى سنوات حيث رآه فى عاصمة الخلافة ، فيقول :
" وجدته مستقرا فى القسطنطينية مقربا من السلطان عبدالحميد ، سجينا من سجنائه فى المسافر خانه فى نيشان طاش

(الضاحية) خارج سور حديقة قصر يلدز"
ويروى كيف سمع عنه قبل أيام ، أثناء رحلته هناك ، أنه اقتحم الاحتفال بعيد الأضحى الذى أقيم فى القصر بعد أن رده أحد موظفى البلاط . ويضيف :
"ولكنه بما عرف عنه دائما من استقلال أصر على أن من حقه كعالم (رجل دين) وسيد (من نسل النبى) أن يتساوى بأى واحد فى الحفل . ثم شق طريقه متقدما وسط الحاضرين حتى لفت انتباه السلطان فدعاه الأخير اليه وجعله يقف خلف كرسى العرش ، وأقرب اليه حتى من كبير الأغوات . وهذا فى رأيى مايميزه أشد التمييز ، لأنه كان لديه نفور ديموقراطى من المظاهر الرسمية . ومع ذلك وبالرغم من مكانته العالية ، وضع سنة ١٨٩٣ تحت المراقبة الشديدة التى فرضها عبد الحميد على جميع ضيوفه"
ويروى زيارته له فى مقره ومعه ابنته :
"كان البيت الذى يقيم به أنيقا فخما . وكان يجلس محوطا بأصدقائه من رجال الطبقة المتعلمة . ونهض لاستقبالنا بحفاوة بالغة . وقبلنى على الوجنتين . وأجلس ابنتى على المقعد الرسمى ذى المسندين . وقدم لنا شايا وقهوة . وراح يسامرنا بحديث طلى بخليط من العربية والفرنسية اعتاد استعماله معنا . تحدث بحرية شديدة حول جميع الأمور . وكان ضيوفه الآخرون لايعرفون غير التركية فيما أظن . وفى اليوم التالى رد لنا الزيارة فى الفندق الذى نزلنا به فى (ضاحية) بيرا . وكان متحمسا جدا لأن أقابل السلطان . وأنا ألوم نفسى على أنى لم أحظ بالفرصة ... وفى زيارتى التالية له حدثنى كثيرا حول وضعه فى ذلك العالم الغريب ، عالم يلدز ، حيث عاش نصف ضيف نصف سجين . وكان سعيدا فى هذا العالم عند ذاك لأن المكانة التى تبوأها اكسبته نفوذا ولم تكمم فمه ، فقد كان دائما حر الحديث"
وأخيرا يروى بلنت ماتلا ذلك من أيام الأفغانى مماسمعه فيقول إنه مر بأيام عصيبة بسبب دسائس الشيخ أبوالهدى (الصيادى

منجم السلطان) الذى كان يغار منه ، حتى أن السلطان سحب منه كل الحظوة التى كانت له . ويضيف : "وليس عندى شك كثير فى أنه كان على علم باغتيال الشاه (أعنى أن كلماته العنيفة قد أدت الى وقوع الاغتيال على يدى واحد من مريديه الايرانيين) لأن جمال الدين كان ثوريا لايعرف المساومة" كما يضيف عن موته : "أميل الى تصديق قصة مرضه الخطير على أنه نتيجة السم . فقد كان له أعداء كثيرون . وكان قد أصبح عبئا على عبدالحميد . وكانت أيامه الأخيرة محزنة على أى حال وطبقا لما رواه لى الشيخ محمد عبده فى حينه فإن سقوطه من الحظوة عند عبدالحميد ترتب عليه ابتعاد أصدقائه القدامى عنه وتجنبهم له . ووجد نفسه شيئا فشيئا وقد اعتزله زملاؤه فى المسافر خانه . ومات بين ذراعى خادم واحد مخلص ، وكان هذا الخادم مسيحيا"

فى هذه الاضافة على أى حال يبدى بلنت اعجابه بصديقه وتأثره به . بل يرثيه وكأنما يعوض اهماله لرثائه وقت موته . لخص فى رسالته الاضافية هذه علاقته بالافغانى تلخيصا لايغنى عن يومياته بما فيه من تفاصيل بالطبع ، ولكنه يوضح كثيرا من النقاط التى سبق أن دونها مفكرته وسجلها فى كتبه .

محمد عبده

الكيان الاسلامى يحتاج الـــى الاصلاح الدينى

عرف بلنت محمد عبده طوال مايقرب من ربع قرن . وربطت بينهما صداقة روحية تركت أثرا فى كل منهما ، وظلت موصولة حتى وفاة محمد عبده سنة ١٩٠٥ . وكان لها أثر أكبر على بلنت نفسه ، اعترف به فى أكثر من مناسبة ، لاسيما فى تقديمه لكتابه المشهور فى العربية "التاريخ السري للاحتلال الانجليزى لمصر" فلولا محمد عبده وتوجيهاته ما ظهر ذلك الكتاب على النحو الذى ظهر به فى طبعته الثانية المزيدة والمنقحة .

يقول بلنت فى مقدمته لهذه الطبعة التى ظهرت سنة ١٩٠٧ اى بعد نحو سنتين من وفاة صديقه انه راجع الطبعة الأولى (ظهرت سنة ١٨٩٥) مع محمد عبده سنة ١٩٠٤ وكانا يلتقيان كل يوم لهذا الغرض فيتناقشان فى التاريخ القريب واحداثه (١) . ويضيف بلنت عن صديقه :

"وحول هذا الموضوع كثيرا ماتحدث الىّ مبديا اسفه على عدم وجود فراغ عنده يمكنه من إكمال تاريخه (لهذه الاحداث) وحين حدثته عن مذكراتى حثنى بقوة على نشرها ، اذا لم يكن بالانجليزية فبالعربية ـ عن طريقه ـ على الاقل . وتعهد بمراجعتها معى

---

(١) روى محمد رشيد رضا فى «تاريخ الاستاذ الامام» (ج ١ ص ٩ ـ ١٠) أن بلنت شجع عبده على تدوين سيرته وتجاربه .

ومطابقة مايتصل منها بما يعلمه على الحقيقة . وقد كنا صديقين شخصيين وحليفين سياسيين منذ يوم زيارتى الأولى لمصر تقريبا . وكان من السهل - وحديقته تطل على حديقتى - أن نعمل معا ونقارن ذكرياتنا عما عرفناه من بشر وأشياء . وبهذه الطريقة اتخذ تأريخى لحقبة لاتنسى - بالنسبة لنا - شكله النهائى . واستطعت (يالى من محظوظ !) أن أتمه وأن أحصل منه (عبده) على موافقته وتصريحه بالطبع قبل ان يموت .

وفى هذه المقدمة الرثائية لمحمد عبده وصفه بلنت بأنه "الفيلسوف والوطنى الكبير" الذى مات فى ذكرى ضرب الاسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) وقال "إن وفاة المفتى ضربة قاسية لى ولمصر ايضا . وقد ادت الى تأجيل خطتنا لنشر الكتاب بالعربية الى أجل غير مسمى"

أهم من هذا كله أن قارىء الكتاب الذى اشتهر به بلنت يشعر شعورا قويا بعد الفراغ من قراءته بأن لمحمد عبده يدا بارزة فى تسجيل حوادث تلك الفترة الخطيرة فى تاريخ مصر التى دامت نحو سنتين (١٨٨١ - ١٨٨٢) وشهدت الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى .

يصور بلنت فى كتابه "التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر" أول لقاء له بمحمد عبده على النحو التالى :

"أجد ورقة بين أوراقى تشير الى تاريخ ٢٨ يناير ١٨٨١ . ففى ذلك اليوم صحبنى لأول مرة عالم (أزهرى)[1] متحمس الى البيت الصغير الذى يقيم به محمد عبده فى حى الأزهر . وأعد ذلك اليوم - بصفة خاصة - علامة مميزة (فى حياتى) لأنه شهد مولد صداقة استمرت الآن (١٩٠٤) نحو ربع قرن لواحد من خيرة

---

(٢) هو الشيخ محمد خليل ، وكان قد قدمة لبلنت موظف انجليزى لتعليمه اللغة العربية سنة ١٨٨١ . ثم مات بالكوليرا بعد عامين .

الرجال وأكثرهم حكمة وطرافة ويجب الا يظن احد أن استخدامى هذه الكلمات فى وصفه يعنى انها تشكل حكما مجاملا أو مبالغا . فانى أبنى حكمى على معرفة شخصيته التى اكتسبتها فى ظروف شتى وفى مناسبات شديدة الصعوبة والقسوة . كعلم دينى أولا ثم كزعيم لحركة اصلاح اجتماعى ومثقف على رأس ثورة سياسية . ثم كسجين فى ايدى اعدائه ، ومنفى فى اراض اجنبية عدة . وبعدها عرفته حين وضع طوال سنوات تحت مراقبة الشرطة فى القاهرة عندما انتهت مدة نفيه ، ثم حين أسس لنفسه فى بلده نفوذا بفضل رجاحة عقله وشخصيته المعنوية واستانف محاضراته فى الأزهر ، وعين قاضيا فى محكمة الاستئناف ، وأخيرا حين عين مفتيا للديار المصرية فى هذه الايام . وهو اعلى منصب قضائى ودينى فى مصر (الصواب ان منصب المفتى يلى منصب شيخ الازهر)

"لقد كان الشيخ محمد عبده ، حين رأيته أول مرة عام ١٨٨١ ، رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين ، متوسط الطول ، أسمر ، نشيطا فى مشيته ، تعكس عيناه النفاذتان حدة ذكاء ، وكان صريحا بطبعه ، ودودا ، يوحى بالثقة الفورية . يبدو فى ملبسه شرقيا خالصا ، يرتدى عمامة بيضاء وجبة غامقة اللون كالتى يرتديها شيوخ الأزهر ، ولايعرف - حتى ذلك الوقت - اى لغة اوربية ، أو لايعرف فى الحقيقة سوى لغته . وبمساعدة محمد خليل الذى كان يعرف قليلا من الفرنسية ويعاوننى فى عربيتى غير الكافية ناقشت معه (محمد عبده) معظم المسائل التى سبق ان ناقشتها مع تلميذه (خليل) ومن الاثنين اكتسبت قبل مغادرتى القاهرة (١٨٨١) معرفة واسعة بآراء مدرسة الفكر الاسلامى الحر التى يتبعانها ومخاوفهما من الحاضر وامالهما فى المستقبل . وقد سجلت هذا كله بعد ذلك فى كتاب نشرته فى اواخر تلك السنة بعنوان "مستقبل الاسلام" وأكد الشيخ محمد عبده على نقطة ان مايحتاجه الكيان السياسى الاسلامى ليس مجرد الاصلاحات وانما الاصلاح الدينى الصحيح . وفيما يتعلق بمسألة الخلافة اتفق رأيه

فى ذلك الوقت مع رأى معظم المسلمين المستنيرين فى ضرورة اعادة اقامتها على اساس روحى أكبر . وشرح لى كيف ان الممارسة الشرعية لسلطة الخلافة تتيح حافزا للتقدم الثقافى . وأن قليلين ممن حملوا لقب "الخليفة" على مدى قرون هم الذين يستحقون القيادة الروحية للمؤمنين . فبيت آل عثمان لم يعن بالدين طوال مائتى سنة ولم يعد يطالب بأى ولاء خارج حق السيف . وقد كانوا ولايزالون أقوى امراء المسلمين واقدرهم على خدمة الصالح العام ، ولكن ما لم يتحمسوا لأخذ وضعهم بجدية فسوف يسعى الناس شرعا الى امير مؤمنين جديد . ولاشك أن الامر يتطلب اساسا سياسيا جديدا على وجه الاستعجال من أجل الحاجات الروحية للمسلمين . وفى هذا كله كانت ثمة نغمة معتدلة فى تعبيره عن آرائه المقنعة للغاية بما تحمله من حكمة عملية"

فى ذلك العام (١٨٨١) وجد بلنت نفسه فى خضم الحركة الوطنية المصرية . فقد تفاقمت أوضاع مصر الاقتصادية فى أواخر عهد الخديو اسماعيل . ولم يستطع الخديو توفيق ان يصلح ماأفسده أبوه بإسرافه واستبداده ، حين خلفه فى حكم البلاد سنة ١٨٧٩ . وأصبح من الواضح للمراقب الخارجى مثل بلنت أن يتنبأ بنشوب ثورة فى البلاد ، أو سقوطها فريسة للسيطرة الاجنبية والاحتلال . وقد توالت النبوءتان واحدة بعد الأخرى . ولكن الثورة نفسها تدرجت من حركة تطالب بالاصلاح الى مقاومة عسكرية للتهديد والاحتلال الانجليزيين . ولما تصاعدت الأحداث مع بداية ذلك العام برزت الى السطح أسماء كثيرين من الضباط والمثقفين . وكان على رأس هؤلاء أحمد عرابى والبارودى وعبد الله النديم ومحمد عبده . وقد سعى بلنت الى لقاء عرابى الذى تجمعت فى يديه كثير من خيوط الحركة الوطنية فى ذلك الوقت . وتم ذلك ـ لأول مرة ـ فى ١٢ ديسمبر ١٨٨١ .

وقد استمع بلنت الى عرابى طويلا فى هذا اللقاء . وخرج من عنده متأثرا بحواره معه حول استقلال مصر الادارى عن الدولة

العلية (العثمانية) مع الاعتراف بالسلطان خليفة للمسلمين ، وتاييد الحزب الوطنى للخديو مع الالحاح على حكم الشورى وحرية التعبير ، والسعى نحو تخليص مصر من ديونها وسيطرة الاجانب مع مساواة الأجنبى والوطنى فى الحقوق والواجبات ، وسياسة الحزب العلمانية تجاه أصحاب الأديان الاخرى غير الاسلام وقد ذكر بلنت أنه ذهب بعد لقاء عرابى الى صديقه محمد عبده ، واقترح عليه تسجيل الآراء التى سمعها من عرابى واعدادها فى صورة برنامج اوبيان لعرضه على الحكومة الانجليزية . ثم عرض الفكرة على القنصل الانجليزى ادوارد ماليت فوافق عليها.

يقول بلنت :

« وبناء على ذلك قمت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وآخرين من الزعماء المدنيين بإعداد بيان أمليناه على صابونجى (سكرتير بلنت) وضمناه موجزا لافكار الحزب الوطنى . ثم اخذه محمد عبده الى محمود باشا سامى الذى عين وزيرا للحربية مرة اخرى وحصل منه على موافقته على البيان ، كما عرض على عرابى ووافق عليه »

أطلق على هذا البيان إسم « برنامج الحزب الوطنى » وقام صابونجى بترجمته الى الانجليزية ونقح بلنت الترجمة ثم أرسله الى جلادستون رئيس الوزراء ، وأرسل نسخة منه الى تشينرى رئيس تحرير صحيفة « التايمز » الذى نشره فى حينه . ولكن دور محمد عبده هنا لايتجاوز الاشتراك فى الصياغة وربما اقتراح بعض الأفكار ، ولايمكن أن ينسب البيان له كما فعل الدكتور محمد عمارة فى الجزء الأول من « الأعمال الكاملة لمحمد عبده » وقد كان البيان يؤكد على ضرورة وجود دستور للحكم فى مصر ، حتى تستتب أمورها وتستقيم نهضتها . وعبر محمد عبده عن رأيه وزملائه من المعتدلين فى الدستور فقال لبلنت :

"لقد انتظرنا السنين من أجل أن تتحقق حريتنا . وهذا كفيل بأن ننتظر بضعة اشهر اخرى"

.. ومنذ البداية مال بلنت الى آراء محمد عبده . وكان يسجلها أولا بأول ، ويوحى للقارىء بأنه لايختلف معها كثيرا ان لم يكن يؤيدها . بل انه اقتنع تماما فى ذلك العام بقضية الاصلاح الفورى لأمور الاقتصاد المتدهور والديون الأجنبية وسيطرة انجلترا وفرنسا على مالية البلاد والحكم الاستبدادى . وأصبح يدافع عن عرابى وزملائه من أنصار الحزب الوطنى . وحاول أكثر من مرة أن يتدخل فى بعض الأزمات التى نشبت بين الوطنيين والمراقبين الماليين الانجليزى والفرنسى . وكان محمد عبده مصدره الأساسى فيما يتعلق بالجانب الوطنى ومرجعه فيما يتعلق بفهم الأحداث وتطوراتها .

حدثت أول أزمة بين الأعيان الوطنيين ، أعضاء مجلس شورى القوانين ، وبين المراقبين الانجليزى والفرنسى للمالية المصرية . وكان سبب الأزمة مطالبة اعضاء المجلس بإخضاع نصف الميزانية السنوية للبرلمان وترك التصرف فى النصف الباقى للمراقبة المالية . ومن الواضح أن هذه المطالبة جاءت تعبيرا عن الرغبة الطاغية فى الشعور بالاستقلال وحرية الارادة . ولكن المراقبين الأوربيين لم يرضيا عن تقلص سلطاتهما ، وحاولا أن يوسطا بلنت الذى كان على علاقة بالمراقب الانجليزى كولفين . وحاول بلنت بدوره أن يخفف حدة التوتر بين الجانبين فلجأ الى صديقه محمد عبده يطلب مشورته .

وكتب بلنت عن ذلك :

"بعد التشاور مع الشيخ محمد عبده ، الذى كان كعادته فى صف التروى والتراضى ، رتب لى الالتقاء فى بيته بوفد منهم لمناقشة القضية معهم حتى أبين لهم العواقب المحتملة لمقاومتهم ـ أعنى التدخل المسلح"

ولكن هذا اللقاء لم يفض الى نتيجة مثمرة ، وان كان بلنت نفسه تفهم موقف الأعيان وأيدهم فيه . وكان القنصل الانجليزى ادوارد ماليت قد أفهم بلنت أن الميزانية المصرية مسألة دولية لا حق لرئيس الوزراء المصرى (محمد شريف فى ذلك الوقت ولا للبرلمان

فى المساس بها دون الحصول على موافقة حكومتى الدولتين اللتين وكلت اليهما مهمة مراقبة المالية والخزانة المصرية ،وهما انجلترا وفرنسا . ويضيف بلنت عن لقائه السابق :

"على هذا الأساس (استقلال الميزانية) وبمساعدة صابونجى ومحمد عبده ناقشت القضية معهم بشكل شامل . واقتنعت بأن تنازلهم أمر غير ممكن ولكنهم وافقوا بالفعل على تعديل المواد الثلاث أو الأربع التى اعترض عليها المراقبان أساسا مثل منح المجلس سلطات "المؤتمر" وقاموا بإدخال التعديلات التى اقترحتها فى اللائحة المنشورة بعد ذلك . ولكنهم تمسكوا برأيهم فيما يتعلق بمادة الميزانية وجوهرها بالرغم من تأييد الشيخ محمد عبده لى"

وهكذا عاد بلنت من مهمته الصعبة هذه بخفى حنين . فقد كان التيار الثورى فى الحركة الوطنية أكثر حسما وعنادا من التيار المعتدل الذى مثله محمد عبده وبعض الأزهريين الآخرين .

فى ٣١ يناير ١٨٨١ ، أى بعد أيام من محاولة بلنت التوسط هذه ، ذهب لمقابلة كولفين المراقب الانجليزى . وكان كولفين ـ كما ذكر بلنت ـ من طراز الموظفين الانجليز الذين تربوا فى الهند ونشأوا على كراهية الشرقيين . ويسجل بلنت فى ذلك اليوم :

"كنت فى مرحلة مبكرة من مراحل القضية قد صحبت الشيخ محمد عبده لمقابلته ، ظنا منى أن أحقق بعض التفاهم بين الطرفين . وحاولت أن أفعل ذلك مع الضباط . ولكن سلوك كولفين أثار الشيخ . وكان الضباط يخجلون من الذهاب معى إليه فقد كان فى بعض الأحيان يتكلم بطريقة فجة ووقحة"

لقد كان كولفين ـ كما يرى بلنت ـ مقتنعا بأن انجلترا لن تغادر مصر أو تتخلى عن مكانها فيها . وكان من رأيه تحطيم الحزب الوطنى بأى ثمن . ولم يكن يدارى هذه الآراء حتى أن بلنت حذر أصدقاءه المصريين منه . بل انه أبدى ندمه على تحديه حين قال له : "اتحداك أن تحقق تدخل الانجليز فى مصر أو سيطرتهم عليها" فقد ندم بلنت على ذلك التحدى لرجل أحمق متهور . وقال :

"انى نادم على ذلك لأنى أعتقد أن التحدى أضاف دافعا شخصيا وسياسيا الى تصرفه التالى" ويقصد بذلك التصرف ايعاز كولفين لحكومته ودفعها الى احتلال مصر .

ولم يبق بلنت طويلا فى مصر فى ذلك العام على أى حال . فقد عاد الى انجلترا فى أواخر شتاء ١٨٨١ وراح يتابع قضية مصر من هناك . وأرسل سكرتيره صابونجى ليتابع الأمر على الطبيعة فى القاهرة والاسكندرية . وقابل فى لندن الجنرال ولسلى قائد حملة الاحتلال فى ١٥ يناير ١٨٨٢ وعرف منه بعض الخطوات القادمة . وأرسل الى محمد عبده خطابا يحذره وغيره من أفراد المعسكر الوطنى من احتمال هجوم الانجليز على مصر فى حالة التدخل المسلح من ناحية الاسماعيلية . وفى ١٩ يناير كتب اليه صابونجى من القاهرة قائلا ان "محمد عبده قرر جمع كل الوثائق التى بحوزته مع غيرها مما يتعلق بالمسائل المصرية للسفر بها الى انجلترا وعرضها على المستر جلادستون والبرلمان الانجليزى"

فى ١٤ مايو ١٨٨٢ ، أى قبل ضرب الاسكندرية بنحو شهرين ، تلقى بلنت تلغرافاً بالفرنسية من محمد عبده ، ولكنه عد صيغة التلغراف محيرة ، وهذا نصها :

"لايوجد خلاف بين سلطان باشا والبرلمان . الذئب (يقصد الخديو المعزول اسماعيل) الذى زعمت اشتراكه فى المؤامرة الشركسية فى خطابى لصابونجى هو فى الحقيقة شريك فى الجريمة هناك خلاف أساسى متباين بين أعضاء البرلمان . الأمن العام لايهدده خطر ."

هذه هى جميع الفقرات التى جاءت فى متن كتاب بلنت عن الثورة العربية والاحتلال الانجليزى فيما يتعلق بمحمد عبده . ومنها نتبين أن محمد عبده كان مساهما بدور بارز فى الحركة العرابية ومقربا من قادتها ولاسيما عرابى والبارودى . ومع ذلك كان يميل فى آرائه الى الاعتدال والتراضى والتروى كما أشار بلنت بحق . وكان فى الوقت نفسه المصور الأساسى لبلنت فيما يتعلق

بالمعسكر الوطنى الذى صعد عرابى الى قمته بعد استقالة وزارة شريف باشا فى فبراير ١٨٨٢ ، وتولى البارودى الوزارة . بل كان أيضا مصححا لكثير من المعلومات التى استقاها بلنت أو كتبها عن تلك الفترة العصيبة التى سبقت احتلال الانجليز لمصر وشهدت هزيمة الحركة الوطنية بعدها .

ومن أهم التصحيحات التى قام بها محمد عبده فى كتاب بلفت ماذكره حول تفكير عرابى ورجال الجيش فى التخلص من الخديو اسماعيل قبل عزله . فقد قال :

"أما بالنسبة لما يقوله عرابى حول اقتراحه فى ذلك الوقت بخلع اسماعيل فلا شك أنه كان ثمة حديث يدور سرا حول هذا الموضوع . وكان الشيخ جمال الدين (الأفغانى) يؤيده . وقد اقترح علىّ ضرورة أن أغتال اسماعيل ذات يوم عند مرور عربته على كوبرى قصر النيل . ووافقت على ذلك بحرارة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحديث بيننا . فقد كان ينقصنا شخص قادر على المبادرة فى الموضوع . ولو كنا نعرف عرابى فى ذلك الوقت لنظمنا معه الأمر ، ولكان ذلك أفضل شىء لأنه كان سيمنع تدخل أوربا . ومع ذلك لم يكن من الممكن أن نؤسس جمهورية بسبب ماكان سائدا وقتذاك فى أوساط الشعب من جهل سياسى"

من أهم التصحيحات أيضا ما أثبته بلنت ـ نقلا عن محمد عبده ـ حول مؤامرة الضباط الشراكسة ودور الخديوى اسماعيل فيها . وكان بلنت قد علم من ابراهيم المويلحى أن اسماعيل دبر هذه المؤامرة من منفاه فى نابولى ، زمن العرابيين ، عن طريق أعوانه فى مصر وعلى رأسهم راتب باشا عدو الوطنيين وكان هدف المؤامرة اغتيال عرابى وزملائه ثم استقدام الخديو اسماعيل والمناداة به خديويا على مصر . وقد ذكر محمد عبده لبلنت فى رسالة له فى ٢٥ ابريل ١٨٨٢ أن المتآمرين قبض عليهم وتم سجنهم كما ذكر له فى رسائل أخرى الكثير من الوقائع المتعلقة بما سمى « حوادث الشغب » فى الاسكندرية عند نزول الانجليز

والمذبحة التى دارت هناك فضلا عن ملاحظاته حول أحداث المقاومة الوطنية للانجليز حتى سقوط مدينة التل الكبير وهزيمة الجيش والقبض على عرابى . وكان مما ذكره أن الخديو توفيق أمر خصيانه بالذهاب الى السجن الذى أودع فيه عرابى وزملاؤه ، وإهانة زعماء الثورة بالسب والبصق فى وجوههم . بل ان بلنت أورد فى كتابيه عن الاحتلال الانجليزى لمصر ومشكلة جوردون فى الخرطوم الكثير من النصوص لبيانات أو خطابات تلقاها من محمد عبده أثناء الثورة العرابية وفترة نفيه بعد ذلك .

وهذه كلها مؤشرات الى الدور الذى لعبه محمد عبده خلال تلك الفترة التى تلت نفى أستاذه الأفغانى فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ حتى نفيه هو فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ ، وكذلك تشير الى الدور الآخر الذى لعبه فى تدوين أحداث تلك الفترة على يدى صديقه بلنت . فلولا محمد عبده ماخرجت مدونة بلنت على تلك الصورة التى خرجت بها ، ولاسيما فى كتابه عن الاحتلال الانجليزى لمصر مما سجله هو نفسه فى مقدمته الرثائية السابقة .

فى المنفى من الشام الى أوربا
بيـــن الصحافـــة والسياســـة

إحتل الانجليز مصر فى ١١ يوليو ١٨٨٢ . وفشلت مقاومة عرابى وقواته بعد نجاح الانجليز فى التسلل الى صفوفه بالرشوة والاغراء . وانتهى كل شىء - بعد نحو ستة أشهر - بنفى قادة الثورة ومثقفيها ، ومنهم محمد عبده الذى حكم عليه فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ بالنفى ثلاث سنوات . وقد رحل الى بيروت مع عشرات من الوطنيين المنفيين . ومن هناك ظل على صلة ببلنت عن طريق المراسلة . وقد نشر بلنت فى ملاحق كتابه " جوردون فى الخرطوم " ترجمة لرسالة تلقاها منه بالعربية فى ٥ أغسطس ١٨٨٣ حول أحداث الاسكندرية وطنطا أثناء نزول الانجليز . وكانت الرسالة تتضمن إسمين لشخصين حضرا تلك الأحداث وأبديا رغبتهما - فى المنفى - لمحمد عبده فى الادلاء بمعلوماتهما ضد الخديو توفيق وأعوانه . وكان بلنت نفسه يجمع فى ذلك الوقت شهادات ومعلومات حول الاحتلال الانجليزى ودور الخديو فيه للاستفادة بها فى تأليب الرأى العام الانجليزى على حكومته وسياستها .

غير أن محمد عبده لم يبق طويلا فى بيروت . فقد استدعاه أستاذه الأفغانى فى يناير ١٨٨٤ الى باريس لاصدار « العروة الوثقى » ومن باريس سهل اتصاله بصديقه بلنت ، وكان بلنت قد عاد فى ذلك الوقت من رحلة إلى الهند زار خلالها عرابى وزملائه

المنفيين فى جزيرة سيلان . وفى طريقه إلى لندن توقف قليلا فى باريس وكتب عن ذلك فى كتابه « جوردون فى الخرطوم » فقال :

« وفى باريس قضينا بضع ساعات فى صحبة أصدقائنا اللاجئين : الشيخ عبده والسيد جمال الدين وجيمس (يعقوب) صنوع . أما الأول فلم أكن قد رأيته منذ الحرب (فى مصر) لأنه قضى السنة الأولى من منفاه فى دمشق (الصواب فى بيروت) حيث احتفى به أبناء عبد القادر (الأمير الجزائرى المنفى) وعاش حياة ضنك ، ولكن فى أمان ، مع عدد كبير من الوطنيين المصريين المنفيين . وجدناه قد تأورب إلى حد ما بعد شهرين من الاقامة فى باريس . فقد أهمل حلق راسه وارتدى طربوش بدل العمامة مما قلل من مهابته كشيخ ، مع أنه كان لايزال يرتدى عباءة محترمة من الفراء . وهو يتكلم الآن بصراحة ضد السلطان والأتراك . ويشكو من الاستبداد فى سوريا (الشام) ولايرى أن الشريف عون (أمير مكة) سيكون الخليفة القادم . ويقول إن المهدى هو المقدمة للخليفة العربى ، وسرعان ما سيصبح الخليفة .

« ورويت له ولجمال الدين كل مافعلته فى الهند ، وأطلعتهما على فكرتى فى الذهاب الى القسطنطينية ، ولكنهما حذرانى من عدم جدواها ، وقالا أننى إذا حاولت الذهاب فهما لايتوقعان منه خيرا ، فالسلطة كلها هناك فى يد عثمان باشا (رئيس الوزراء أو الصدر الأعظم) الذى لايهمه إلا أن يملأ كيسه بالمال . أما سوريا (الشام) فتموج بأفكار الحرية برغم طغيان الجواسيس والشرطة . ولايمكن عمل شىء فى القسطنطينية . ثم تحدثنا عن المهدى الذى أصبح الآن الموضوع الرئيسى لاهتمام المسلمين وكذلك عن جوردون الذى ذهب الى الخرطوم . ووافق جمال الدين على الخطاب الذى كتبته لجوردون . وقال إنه مقضى عليه مادام يتخذ الجانب الخاطىء .

وينقل بلنت بعد ذلك ماجاء فى يومياته حول زيارته لمقر صحيفة « العروة الوثقى » مما نقلناه عن الحديث عن علاقته بالأفغانى . وقد تمت هذه الزيارة فى ٢٧ مارس ١٨٨٣ وغادر بعدها

باريس عائدا إلى لندن . وفى ٨ أبريل ، أى بعد أقل من أسبوعين سجل فى يومياته أنه كتب خطابا لمحمد عبده أوضح فيه أراءه حول الهند ومسلميها . وفى هذا الخطاب المطول المؤرخ فى ٧ ابريل أشار بلنت الى آنه كتب ردا على خطاب تلقاه من محمد عبده اعتذر فيه من عدم تمكنه من الحضور الى لندن ومعنى ذلك أن بلنت ـ فيما يبدو ـ قد دعا عبده الى الحضور وقت مروره بباريس للتشاور مع المسئولين الانجليز حول قضية مصر بعد الاحتلال .

استهل بلنت خطابه بقوله :

« إلى صديقى العزيز النبيل العالم محمد عبده ، شهيد الحرية ، أدام الله علمه . أسعدنى كثيرا خطابك ، الذى فرغت حرمنا الآن من ترجمته لى كاملا ، فيما عدا ماذكرته من أنك لاتستطيع الحضور الى انجلترا بعد . ولكنى أرسل لك مع هذا ما تحتاجه فى رحلتك من مال راجيا أن تفيدنى بوصوله . وقد كتبت منذ اربعة أيام الى السيد صنوع ورويت له شيئا عن حالة الرأى هنا . ثم كتبت بعدها رسالة ستنشر فى صحيفة « التايمز » غدا أو يوم الأربعاء واقترحت فيها حلاً للمصاعب والعقبات الراهنة فى مصر . وأرجو أن يتفق ذلك مع رأيك ، لأنى أقترح فيها أن تعرض المسألة المصرية على مؤتمر أوربى ، وأن ينسحب الجيش الأنجليزى من البلاد ، وأن توضع مصر تحت الحماية المشتركة من جانب الدول الكبرى ، وبذلك تحكم نفسها وفق إرادتها . وأقترح أيضا أن يعقد الصلح مع المهدى ، وأن يستدعى الجنرال جوردون من الخرطوم . ولم أنس أن أوصى بألغاء مراسيم النفى للوطنيين المصريين . أما فيما يتعلق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف أرائى حولها لأنها منشورة بالكتاب الذى ألفته منذ ثلاث سنوات وأقمته على توجيهاتك وآرائك المفيدة » (١)

---

(١) يقصد كتابه « مستقبل الاسلام » الذى ظهر سنة ١٨٨١

ثم سجل بلنت فى خطابه آراءه وأفكاره حول مسلمى الهند بناء على مارآه وسمعه خلال زيارته . وتتلخص هذه الآراء فى أنه يحبذ أن يخطط المسلمون فى الهند من أجل التربية السياسية دون انعزال عن بقية الهنود ، وأن يؤسسوا جامعة للنهوض بالتعليم حتى يعززوا وحدتهم ، وأن يقبلوا على تعلم اللغة الانجليزية حتى يزدادوا اهتماما بالشئون العامة .

ويبدو أن محمد عبده كان قد طلب فى خطابه السابق معاونة بلنت فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » التى لم يكن قد مضى على صدورها شهر واحد . فقد قال بلنت فى رسالته هذه :

« أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدنى أن أبذل كل مابوسعى لمعاونتكم ولكنى أنصحكم بكل قواى أن تلتزموا الاعتدال فى لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانجليزية ـ لابمعنى أن أى شىء تقولونه حول تصرفاتها فى مصر يمكن أن يتجاوز غضبى ونفاد صبرى ـ وإنما لأنى أرى فى صداقة انجلترا خير أمل للمسلمين . وصدقنى أنه بالرغم من سلوك انجلترا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فمازال بين الانجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق »

ومع ذلك لم يعمل الأفغانى ولا محمد عبده بنصيحة صديقهما فى التزام الاعتدال فى الحديث عن الحكومة الانجليزية . فقد استمرت « العروة الوثقى » فى كشف خبايا السياسة الانجليزية ، ولا سيما فى مصر ، حتى أمرت الحكومة المصرية بمنعها من دخول مصر . كما أمرت حكومة الهند بمنعها أيضا من الدخول هناك .

ومع ذلك أيضا رد محمد عبده على هذا الخطاب بخطاب من باريس مؤرخ فى ١١ ابريل ١٨٨٤ ، أى بعد أربعة ايام فقط من تاريخ كتابة الأول . ويبدو أن البريد فى ذلك الوقت كان اسرع بكثير مما هو عليه الآن فى عصر الطائرات وقد شكر عبده صديقه على نصائحه وقال إن الأفغانى سيكتب إلى أصدقائه فى الهند بما أشار به بلنت . ثم قال :

« أما بعد ، فقد اغتبطنا للنصيحة التى تكرمت بها علينا ووعدك بمساعدة صحيفتنا « العروة الوثقى » وقد كان هذا أملنا فيك . وما من شك فى أن الله عز وجل قد خلقك لفعل الخير ومساعدة قضية الحق والدفاع عن المظلومين . وهذا هو الوجه الحقيقى لصحيفتنا ، فضلا عن خدمة تلك الأفكار التى تشقى من أجلها ، أعنى الحفاظ على استقلال الأمم الشرقية ونصح الحكومة الانجليزية حتى تتخلى عن مسلكها الذى يشقى عقول المسلمين ، وتسرع بمد يد الصداقة إليهم ، وبذلك تضمن وقوفهم فى صفها »

وفى ١٥ ابريل سجل بلنت فى يومياته أن محمد عبده وصنوع كتبا اليه وأبديا إعجابهما بمقاله الذى نشره فى صحيفة « التايمز » فى ١٠ ابريل . وفيه اقترح على حكومة بلاده تسوية جديدة للمسألة المصرية تقوم على أساس الجلاء وإعادة المنفيين والصلح مع المهدى .

ويبدو فى تلك الأثناء أن محمد عبده غير رأيه وقرر القيام برحلته الى لندن بعد أن أرسل اليه بلنت نفقات السفر . ولكنه آخّر رحلته نحو ثلاثة أشهر . وكانت هذه أول زيارة يقوم بها إلى لندن . ولكنها لم تكن زيارة نزهة بمقدار ماكانت زيارة عمل ، شاهد خلالها الكثير من المعالم وقابل الكثير أيضا من الشخصيات وبدأت يوميات بلنت فى ترديد اسمه وتحركاته من خلال مضيفه الذى استضافه فى بيته بلندن ، وهو نفسه البيت رقم ١٠ شارع جيمس ، أو « جيمس ستريت » كما كان يختصره بلنت ، حيث استضاف الأفغانى بعد ذلك . يروى يوميات بلنت تفاصيل هذه الزيارة فى كتابه « جوردون فى الخرطوم » يقول :

٢١ يوليو ١٨٨٤

وصل محمد عبده الآن من باريس . تغيرت آراؤه منذ رأيناه آخر مرة . فالشعور السائد عنده الآن هو كراهية انجلترا التى اتحدت مع كراهية الشراكسة ، إنها الحكاية القديمة تعيد نفسها . فعندما

تضغط أوربا وتهدد يقوم المصريون بتوحيد صفوفهم تماما مثلما فعلوا عند صدور المذكرة الثنائية (التى وجهتها انجلترا وفرنسا لمصر سنة ١٨٨١ وساندتا فيها الخديو ضد الوطنيين) والانذار (الذى وجهه قائد الأسطول الانجليزى إلى عرابى سنة ١٨٨٢ قبيل الاحتلال) ومع ذلك فهو (عبده) لم يتخل عن عرابى ، مع أنه يرى أن دوره قد انتهى فى مصر كشخصية سياسية . وهذا صحيح فى الغالب .

٢٢ يوليو

ذهبت مع محمد عبده الى مجلس العموم . لم نجد لابوشير (عضو المجلس وصديق بلنت) ولكننا وجدنا چورچ هوارد (عضو آخر صديق لبلنت) الذى صحبنا فى جولة داخل المبنى . وكنت قد طلبت من عبده أن يرتدى جبته الزرقاء وعمامته البيضاء مما أشاع فى بهو المجلس جوا لطيفا ، وتقدم نحونا مباشرة تشيسون (عضو آخر) فدعانا إلى عشاء يقام بالمجلس فى الأسبوع القادم للهنود وسواهم من الشرقيين . وأصر المصور على التقاط صورة للشيخ ، وقمت بتقديمه لعدد من النواب . واستمعنا إلى نائب أيرلندى ، أظنه سكستون ، راح يندد بأخطاء أيرلندا . ومن الشرفة المطلة على النهر (التيمز) أرينا عبده قارب الشرطة الذى يروح ويجىء على الماء لمنع محاولات تفجير الديناميت (لحساب الوطنيين الأيرلنديين) وهو مشهد أضيف الى معلوماته . ثم وجهنا نظرة نحو المستر برايت (نائب آخر) الذى انخرط على مقعده فى حديث مع ناثانيل روتشيلد (النائب اليهودى الوحيد وعميد أسرته وطائفته فى لندن)

وفى أقصى القاعة لمحت بارنل (النائب الأيرلندى المعارض) يتمشى جيئة وذهابا وحيدا مكتئبا ، فطلبت من جورج هوارد أن يقدمنا اليه . وكان الرجل جذابا وعطوفا فى الحقيقة ، معنا على الأقل بصفتنا رفاقا على طريق التمرد . وقد طلب من عبده أن يزوره

وأن يزوده بالمعلومات (عن مصر والسودان) وقال : « عندنا واحد من زملائنا فى مصر الآن وهو المستر أوكيلى (نائب أيرلندى معارض آخر كان يراسل صحيفة الديلى نيوز وقتها فى دنقله) ولكننا نخشى أن تطول غيبته » فقلت له أن عبده وجمال الدين هما اللذان كتبا له الخطابات التى مكنته من الذهاب الى المهدى . وعندئذ بدت على وجهه علامات الدهشة من معرفتى لهذا الموضوع . غير أن اكتئاب بارنل وتحفظه ليسا من طبعه فعيناه تتألقان وشفتاه تكتسيان بابتسامة من وقت الى آخر مما يكشف عن طبيعته الحقيقية . ولا شك أنه رجل فاضل ، وأنا متأكد من أننى أستطيع التفاهم والتعاون معه جيدا . وعندما حان وقت انصرافه تغير مزاجه ، وأصبح متحمسا ، وألقى علينا كلمة قصيرة قائلا أنه تشرف بمعرفة الوطنى المصرى ، وأكد أنه سعد كثيرا بمعرفتى . ووعدنى بأن يكتب لى ويحدد يوما لرؤية الشيخ .

٢٣ يوليو

جاء على الافطار ميرزا باقر ، وهو صوفى ايرانى (يعيش منفيا فى لندن) وصحبنا أنا وعبده بعد ذلك الى بيت السير ويلفرد لوصن (عضو البرلمان) ولكن الزيارة لم تحقق النجاح الذى كنت أرجوه . فقد وجه لوصن اسئلته الى عبده بطريقة جافة أكثر من اللازم مما أفزعه بعض الشىء ، فلم يستطع أن يعبر عما فى نفسه بوضوح على أى حال فيما عدا النقطة الخاصة بوجوب انسحاب القوات الانجليزية كخطوة أولى لاعادة تحقيق السلام فى مصر ، وحين ذهبنا بعد ذلك الى لابوشير (نائب آخر) دار الحديث فى مجمله على هذا النحو . وحاول لابوشير أن يقنع عبده بأن المستر جلادستون (رئيس الوزراء يريد إجلاء القوات (الانجليزية) عن مصر ، وأن خير طريقة للجلاء هى أن يمتنع المصريون عن دفع أى ضرائب طوال وجود هذه القوات . ولكن عبده اعترض على ذلك ومعه حق الى حد ما ، قائلا إن المستر جلادستون لم يكف عن

الحديث حول الجلاء فى الوقت الذى ظل يرسل فيه قوات أكبر ويملأ البلاد بالموظفين الانجليز . وشكا من أن الامتناع عن دفع الضرائب سيفسر بأنه مبرر للسيطرة .وعبثا حاول لابوشير اقناعه بأن هذا غير صحيح . ولم يستطع لوصن ولا لابوشير أن يوحيا لعبده بأى إحساس ينم عن إخلاصهما . ويرجع ذلك الى انهما لايجيدان الحديث مع الشرقيين ، فطريقتهما الجافة تبدو كأنها عداء .

وقد تناولت طعام العشاء فى البيت مع عبده وباقر اللذين انخرطا فى مناقشة طويلة حول سماح تقاليد السنة بالحديث على الطعام ، وهى نقطة توصلا الى حلها بشكل ودى ، وكذلك حول القرآن وهل كان فى الأصل كتابا كاملا أم تجميعا لأيات شفوية وأبدى عبده تمسكه بالرأى الأخير، وأنا أوافقه على هذا تماما ، ولكن ميرزا العجوز أصر على أنه كتاب معجزة ، نزل كاملا غير مجزأ . وهذا أمر غريب اذا علمنا أنه (ميرزا) يتميز بالتحرر الشديد فيما يتعلق بمعظم الأمور .

٢٤ يوليو

ذهبنا الى تشرشل (العضو البارز فى البرلمان فى ذلك العام قبل توليه وزارة شئون الهند) ودار بيننا وبينه حديث مرض الى حد كبير إذا قورن بحديثنا أمس مع لوصن ولابوشير . وكان أسلوب تشرشل موفقا تماما حتى أن عبده خرج فى غاية السرور وقال : « إن هذا الشاب أحكم من الآخرين - لوصن ولابوشير - وأرق قلبا » ونظرا لأننى سأسجل هذا الحديث كله وأعده للنشر فى صحيفة « بال مال » فلن أكرره هنا . وقد وعد تشرشل بذكر عبده عند تشمبرلين (عضو البرلمان ووزير التجارة) وتوسيطه فى ترتيب لقاء لعبده مع جلادستون . وأنا واثق من إمكان التوصل الى تسوية إذا تم هذا اللقاء .

٢٨ يوليو

دار حديث بيني وبين عبده . ذكر لى أسماء الأشخاص الثلاثة الذين اشتراهم سلطان باشا وخانوا الجيش فى (معركة) التل الكبير ، وهم : على يوسف التركى الذى كان يقود كتيبة وسط ثلاث ، وانسحب ليسمح لولسلى بالتقدم ، وعبد الرحمن حسن المصرى الذى كان يقود طلائع الخيالة وأهمل إنذار القوات حول تقدم الانجليز . وراغب ناشد العقيد الشركسى الذى كان يحتل موقعا متقدما . فهؤلاء هم الخونة الوحيدون . أما (عبد الله) النديم فقد قر الى السودان (الصواب أنه فر إلى الريف المصرى واختفى فيه) وأما على فهمى (زميل عرابى) فقد هزم فى (موقعة) القصاصين لأن محمود سامى (البارودى) عجز عن الوصول اليه فى موعده . ويضيف عبده أنه إذا أعيد تشكيل حكومة وطنية فيجب تعيين على فهمى وزيرا للحربية ، ويعقوب سامى وزيرا للداخلية ، وعرابى رئيسا للبرلمان وعبد العال (حلمى) قائدا للجيش .

عينت ميرزا باقر سكرتيرا لى لقاء جنيه واحد فى الأسبوع .

ذهبت الى تشرشل ووجدته طريح الفراش ... وكان قد شغل نفسه بعبده . وسوف يصحبه غدا لمقابلة هارتنجتون (وزير شئون الهند)[1]

٢٩ يوليو

ذهبت مع عبده وباقر الى فندق كارلتون حيث قابلنا تشرشل وسلمتهما له ، فصحبهما لمقابلة هارتنجتون . وعادا فى غاية السرور فقد أبدى لهما هارتنجتون قدرا كبيرا من التهذيب والذكاء . ويعتقد عبده أنه ترك فى نفسه انطباعا طيبا .

---

(١) عندما عاد محمد عبده إلى باريس نشر ملخصا لهذه المقابلة فى « العروة الوثقى » ولكنه ذكر ـ خطأ ـ أنه وزير الحربية .

٢ أغسطس

سجلت حوارا مع عبده للنشر فى صحيفة « بال مال جازيت » Pall Mall Gazette

٤ أغسطس

« يوم حافل مشهود » . عرضت قضيتى فى مجلس العموم بعد ظهر اليوم . وقد ذهبت الى هناك بصحبة عبده ، وذهبت آن مع ليدى ونتورث . وفى الصباح أصدرت وزارة الخارجية كتابا أزرق حول القضية ، ويستفاد منه أن شريف باشا (رئيس الوزراء فى مصر قبيل الاحتلال) قد وجه عددا من الاتهامات . ومن حسن الحظ أننى أستطيع ردها جميعا . أما الحكومة (الانجليزية) فلم يكن لديها أى كلمة تقولها فى الحقيقة . وأيا كان ماوصلت اليه المناقشة (البرلمانية) فقد حققت لنا فى مجموعها نصرا ، بالرغم من أنها تترك كل شىء على ماهو عليه ...

٦ أغسطس

وصلنى خطاب من برودلى (المحامى الذى سبق أن وكله بلنت للدفاع عن عرابى) يقترح فيه أن أقابل ـ بشكل عارض ـ إسماعيل باشا (الخديو) فى بيت إسكوت (رئيس تحرير مجلة « فورتنايتلى » fortnightiy وسوف أذهب الى هناك ، مع أننى واثق من أن اسماعيل لن يثير إعجابى ، ولكن حان الوقت لكى أعرفه . أن برودلى يعد بتحقيق الكثير للقضية الوطنية فى حالة عودته (الخديو) الى مصر ، وقد ذهب عبده لزيارته فى الأسبوع الماضى ولكنهما لم يتحدثا فى السياسة .

عند هذا الحد من يوميات بلنت ينتهى ذكر محمد عبده فى أول زيارة له الى العاصمة التى كانت سياستها سببا رئيسيا لنفيه . وحين قابل بلنت الخديو اسماعيل بعد ظهر ٨ أغسطس ذكر فى

تسجيله لتلك المقابلة التى لم يرض عنها أنه تحدث مع الخديوى قليلا عن محمد عبده ، ولكنه لم يذكر أى تفاصيل . بل أنه لم يذكر بعد ذلك تاريخ انتهاء زيارة ضيفه وصديقه . أنها استمرت حتى صباح ٨ أغسطس على الأكثر ، لأن الأرجح أنه كان سيصحب محمد عبده معه الى تلك المقابلة العرضية مع الخديوى اسماعيل .

ومع ذلك فمن الواضح أن هذه الزيارة الأولى لمحمد عبده التى دامت نحو أسبوعين قد افادته هو شخصيا على الأقل من نواحى كثيرة . فقد اطلع بنفسه على رأى بعض المسئولين عن تخطيط السياسة الانجليزية إزاء مصر والسودان والمسلمين فى الهند والدولة العلية . كما أطلع هؤلاء على ماكان يدور فى أذهان الوطنيين المصريين وقتها من افكار حول قضية مصر والسودان . وكان حديثه الى صحيفة « بال مال جازيت » من الوضوح والحسم بحيث ساهم فى بلورة الفكرة التى نقلها الى الانجليز . كما كان حديثه هو نفسه مع المركيز (الدوق فيما بعد) هارتنجتون الذى نشر خلاصته فى صحيفة « العروة الوثقى » بعد عودته من الوضوح والحسم أيضا بحيث لم يؤد ـ مع سابقه ـ الى تناقض فى الرأى أو الموقف . أما مقابلته لجلادستون فلم تتم ولاندرى ماالسبب . فلم يشر اليها بلنت بعد ذلك .

قال محمد عبده فى حديثه الى الصحيفة الانجليزية (الذى نشره بلنت فى ملاحق كتابه) إن تعاطف الانجليز مع المصريين أشبه بتعاطف الذئب مع الحمل قبل التهامه ، وأن الشىء الوحيد الذى علمته الحكومة الانجليزية للمصريين هو أن يتحدوا حول الرغبة فى إجلاء الانجليز ، وإن أكبر خطأ ارتكبه الخديو توفيق هو السماح لهم بدخول البلاد وانضمامه الى اعداء دينه وقت الحرب ، وبذلك فمن المستحيل أن يكن له الوطنيون أى أحترام . وأضاف : « نحن لانبغى خونة بوجوه مصرية وقلوب انجليزية » ونفى أن يكون للفرنسيين خطر على مصر إذا تركها الانجليز . وقال عن المهدى فى السودان إن خطره الوحيد على مصر يتمثل فى وجود

الانجليز ، وإن الناس ترى فيه منقذا من العدوان المسيحى وسيهرعون للانضمام الى صفوفه إذا جاء اليهم ، وقال أيضا : إن انجلترا إذا أرادت إصلاح ما ألحقته بنا من ضرر فلابد ـ كما قلت ـ ان تقدم لنا أول برهان على إخلاصها عن طريق إجلاء قواتها عن مصر . ثم تتفق مع الدول الأوربية الكبرى وجلالة السلطان حول اختيار حاكم جديد لنا ولست مؤهلا لتحديد من يكون هذا الحاكم . ولكن ايا ما كان الذى سيختار فلابد ألا يكون شخصا مكروها عند الشعب وأن يوافق عليه السلطان . ويجب أن يعين لمدة محددة ، لتكن سبعا أو عشرا من السنين ، ثم يسمح للشعب فى نهاية المدة أن ينتخب حكامه بنفسه . فإذا أثبت أنه رجل أمين فقد يحتفظ عندئذ بمنصبه ... ويجب أن يكون الحاكم مسلما ومصريا بالميلاد إذا أمكن »

وأختتم عبده حديثه بأنه لايعارض عودة عرابى الى مصر ، وأن مكانه فى حالة عودته ـ هو البرلمان الذى يجب أن يتمم سلطة حاكم مصر ويوجهها . فهو رجل أمين ولكنه قليل العناية بالتفاصيل مما يقلل أهليته كإدارى وكقائد للجيش . وأخيرا أعاد ما سبق أن قاله حول ضرورة جلاء الانجليز .

فى ١٣ سبتمبر شرع بلنت فى رحلة جديدة الى القسطنطينية (الاسم الأوربى للأستانة أو اسطنبول اليوم) عاصمة الامبراطورية العثمانية . ومر بلنت كعادته بباريس التى وصلها فى وقت متأخر من مساء اليوم نفسه . وكان الهدف من رحلته هذه هو نفسه الهدف القديم الذى حدث الأفغانى وعبده عنه منذ أشهر عند عودته من رحلة الهند ، وهو أن يحاول حث السلطان (عبد الحميد) على المبادرة بالاصلاح . إذ يجب أن يفعل ذلك الآن وإلا فقد زمام المسلمين الى الابد ، ولكنه ـ كما يضيف ـ لايتوقع النجاح فى مهمته . فكل شىء هناك من الفساد ـ على حد قوله بحيث لايقيم بناء متماسكا .

وفى باريس قابل بلنت أصدقاءه « اللاجئين » مرة أخرى ففى

١٤ سبتمبر يكتب : «جاء عبده وصنوع على العشاء ـ كلاهما فاقد الامل فيما يتعلق بأمور مصر وفى اليوم التالى يكتب : تناولت العشاء مع عبده وجمال الدين ، وجلسنا فى مقهى على الشارع حتى وقت متأخر» وباستثناء هاتين الاشارتين الى محمد عبده لايعود بلنت الى ذكره بعد ذلك فى متن الكتاب . ولكنه يضم الى الملاحق العديدة للكتاب نصوص الرسائل التى تبادلها مع عبده فى تلك الفترة وحديثه الى صحيفة « بال مال جازيت » ، وتعليقه على تصريح لأحد ضباط الجيش الانجليزى حول أحداث الشغب السابقة .

بهذا تنتهى مرحلة أخرى من مراحل علاقة بلنت بمحمد عبده . وهى مرحلة بدأت بنفى عبده وانتهت بسفر بلنت الى تركيا ، أى من أواخر ١٨٨٢ الى أواخر ١٨٨٤ ، بما يعادل نحو سنتين ، ولا تبدأ المرحلة التالية إلا بعد عودة محمد عبده الى مصر سنة ١٨٨٩ ، أو بمعنى أدق لايظهر اسم عبده فى يوميات بلنت إلا عام ١٨٩٠ ، أى بعد نحو عام من عودته الى مصر وستة أعوام منذ ظهور اسمه آخر مرة عام ١٨٨٤ ، على الرغم من أن بلنت نفسه بدأ فى تسجيل الجزء الأول من يومياته ، التى ظهرت بعنوان « يومياتى » سنة ١٨٨٨ ، وليس هناك سبب للاعتقاد بأن العلاقة بين الرجلين قد انقطعت بخصام أو ما أشبه خلال تلك المدة فلاتوجد إشارة الى ذلك فى كتاباتهما ، فضلا عن أن بلنت لم ينشر شيئا فى الفترة الواقعة بين تاريخ صدور كتابه « جوردون فى الخرطوم » وتاريخ صدور الجزء الأول من يومياته ، أى بين عامى ١٩١١ ـ ١٩٢١ ، ولكن من الواضح أن محمد عبده كان فى حاجة الى الابتعاد عن بلنت فور عودته الى مصر ، لأن بلنت كان على رأس الانجليز المغضوب عليهم فى مصر إن لم يكن فى انجلترا ايضا وقد أشار هو قبل قليل الى قضيته التى أثيرت فى البرلمان الانجليزى ، وملخصها أنه منع من دخول مصر بعد أحداث ١٨٨٢ ومناصرته للقضية الوطنية وظل ذلك المنع سارى المفعول نحو ثلاثة سنوات ،

وكان من الطبيعى ـ والحال هذه ـ أن يبتعد هو نفسه عن صديقه محمد عبده حتى لايصيبه بالضرر مرة أخرى . ومن ناحية أخرى ظل محمد عبده ـ بعد عودته ـ يعيش فى الظل ، مغضوبا عليه تقريبا من الخديو والانجليز ، متنقلا فى القضاء بين بنها والزقازيق حتى نقل الى القاهرة عام ١٨٩٠ ، أى فى العام نفسه الذى شهد ظهور اسمه من جديد فى يوميات صديقه الانجليزى المعادى لسياسة الانجليز فى مصر وفى غيرها .

رشحه بلنت وزيــرا للأوقاف وعينه الخديو مفتيا للديار

نال محمد عبده مكانا بارزا فى يوميات بلنت بجزئيها ، إبتداء من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٥ التى توفى فى صيفها . وشكلت تلك الفترة التى تقرب من ١٥ سنة المرحلة الأخيرة فى علاقتهما ، وهى مرحلة اتسمت بميلهما المتبادل إلى الاعتدال فى الرأى والمواقف بشكل عام ربما بسبب السن فقد تخطى الاثنان الأربعين وقتذاك ، وربما بسبب الاحباط فقد عجز الاثنان عن تحقيق أهدافهما الكبيرة مثل استقلال مصر ووحدة المسلمين وعودة الخلافة الى العرب ، وربما بسبب الوضع المعادى لهما بعد احتلال مصر ، وربما ـ أخيرا ـ بسبب هذا كله مجتمعا .

ونبدأ بالجزء الأول من اليوميات ، فتطالعنا الاشارة الى محمد عبده ابتداء من يناير ١٨٩٠ . وكان بلنت قد جاء الى مصر ـ للمرة الثانية ـ بعد السماح له بدخولها عام ١٨٨٦ . واستقر فى بيته الذى يتوسط بستانا كبيرا للفواكه بضاحية عين شمس شمال شرقى القاهرة ، وهو بيت درج على تسميته مع البستان باسم « الشيخ عبيد » نسبة الى شيخ بهذا الاسم مدفون وسط الحديقة . ولكن بلنت منذ زيارته السابقة على هذه عام ١٨٨٩ كان قد قرر فى نفسه شيئا جديدا . فلم يحاول من قريب أو بعيد أن يتصل بسلطات

الاحتلال ، وعلى رأسها السير إيفلين بارنج القنصل العام والمقيم البريطانى وأعلى سلطة فى ذلك الوقت قبل أن يصبح « اللورد كرومر » وقد حدث قبل مجيء بلنت الى مصر هذه المرة أن قابل فى روما اللورد دوفرين السفير الانجليزى فى الاستانة سابقا ، ونائب الملكة فى الهند ، فأكد له أن بارنج لم يعد غاضبا منه وأن من المناسب أن يزوره . وأحس بلنت بشىء من التشجيع ، وانتعشت بداخله أحلامه القديمة ، وفكر فى المساهمة فى العمل على اعادة الحكم غير الاستبدادى الى مصر ، ولاسيما بعد أن سمع عن كرومر أنه أصبح معتدلا ، يصغى للرأى الآخر بإخلاص ، ويعامل زواره الانجليز حتى من كان منهم متطرفا - بأدب جم بعيدا عن المكر والدهاء الدبلوماسيين . نعود الى يوميات بلنت . وندع المجال لكلماته وطريقته العفوية فى تسجيل الحوادث وتصوير الشخصيات :

١٢ يناير ١٨٩٠

ذهبت أمس لمقابلة السير إيفلين بارنج بناء على موعد . ولم أكن قد زرته منذ لقائنا سنة ١٨٨٣ . ولكن الزيارة تحققت على النحو التالى : عندما كان الأمير وإجرام (الفرنسى) هنا قبل اسبوعين - وكان قد جاء بعدنا الى مصر فى نهاية العام الماضى - أبلغنى رسالة شفوية من بارنج بأنه يسره أن أذهب لرؤيته . ولم أكن فى ذلك الوقت واثقا تماما من كيفية الاستجابة للدعوة ، فأجلت اتخاذ أى خطوة ، ولكن حدث أن زارنى يوم الأحد الماضى محمد المويلحى (الأديب مؤلف « حديث عيسى بن هشام ») فروى لى أخبار حركة سير الأمور من الناحية السياسية . وأكد لى أن الناس أصبحوا أكثر توافقا مع الأوضاع وأن رياض (رئيس الوزراء) سمح لهم بقسط أكبر من الحرية الشخصية ، وأن توفيق اعتزل العمل السياسى تماما . وقد سمح بعودة جميع المنفيين تقريبا ، وعين محمد عبده قاضيا فى بنها . ونصحنى (المويلحى) بأننى

والحال هذه ، يجب أن أستجيب لمبادرة بارنج حرصا على مصلحة عرابى . وقال إن هذه الاستجابة تزيد فرص نفوذى ، لأن الناس كانوا يخشون وقتها التردد علىّ ، خوفا من سخط بارنج . ولم يكن من رأى المويلحى أن رياض يعادينى فى حين رأى العداء من جانب الخديو بلاشك . ومع ذلك كان الخديو سريع التأثر ، فإذا رأى أن بارنج لايعادينى فسوف يعتقد أن من الأضمن له أن يحذو حذوه ، وقد رأيت أن هذه نصيحة سديدة ، وبناء عليها كتبت مذكرة الى بارنج أفيده بأننى تلقيت رسالته الشفوية من واجرام وأطلب منه تحديد موعد لرؤيته . فرد على بأدب جم وهكذا تم ترتيب زيارتى .

وجدت بارنج فى مكتبه فى الساعة الثانية ، ومكثت معه نحو نصف ساعة ... ذكرت له أننى سمعت أن محمد عبده قد عاد وتسلم وظيفته فأثنى كثيرا على الشيخ ، وقال أن كل المنفيين تقريبا قد عادوا . »

تكررت زيارات بلنت لكرومر بعد ذلك . وشيئا فشيئا قوى حبل المودة بينهما ، وازداد سماع كرومر لرأى خصمه القديم ، حتى عاد بلنت الى انجلترا فى الصيف . ولما جاء الى مصر مرة أخرى فى خريف ذلك العام وصل ماانقطع من زياراته لكرومر الذى لم يكن يقبل على الأهالى . فكان هؤلاء يأتون بمشكلاتهم الى بلنت فيرفعها الى كرومر حتى تجد حلا ، وفى إحدى زياراته حدثه عن بعض أفكاره بعد أن فشل فى إقناعه بإعادة عرابى من منفاه .

قال بلنت :

« ولما فشلت فى هذا بشأن عرابى ركزت سعيى وقتها على محاولة جذب اهتمامه نحو الأعضاء الآخرين للحزب الوطنى السابق . وكنت فى ذلك الوقت أحظى كثيرا بزيارات صديقى القديم الشيخ محمد عبده الذى أصبح جارى فى الاقامة بحكم عمله كقاضى لمدينة بنها عاصمة منطقتنا . وبناء على اقتراح منه قدمت لبارنج خطة تقضى بالاستعانة بهؤلاء الوطنيين القدامى فى

مجالسه ، وتشكيل حكومة من الفلاحين المصريين مكان الباشوات الشراكسة الذين كانوا يشكلون حتى ذلك الوقت الطبقة الوحيدة من المسلمين المسموح لها بتولى الوزارة فى ظل النظام العائد منذ (موقعة) التل الكبير .

ثم يعود بلنت الى يومياته فيبدأ بالحديث عن عصابات اللصوص فى القاهرة وضعف الأمن :

١٤ مارس ١٨٩١

« وصلت الى نتيجة فيما بعد مؤداها أن التسامح الذى استمتعت به العصابات طويلا كان يرجع الى التغاضى الضمنى من جانب رياض مع عدم الكفاءة والارتباك من جانب بيكر (باشا مدير الشرطة الانجليزية) الذى أعفى من منصبه (عقب ازدياد حوادث السرقات الليلية) وقد استغللت ذلك فى رسم عبرة لبارنج ، فكتبت له رسالة أجملت فيها الحجج الى تدعم رأيى حول ضرورة تأليف حكومة من الفلاحين (الاهالى من غير الأتراك أو الشراكسة أو الشوام) ، وأرسلت له قائمة بأسماء رجال حزب الفلاح (ذوى الأصول الفلاحية . فلم يكن هناك حزب بهذا الاسم) الذين يمكنهم تأليف وزارة إصلاح . وقد أعددت القائمة بالتشاور مع الشيخ محمد عبده ومحمد المويلحى . وهذه هى الأسماء :

حسن باشا الشريعى من المنيا

بليغ بك

أمين بك فكرى

سعد أفندى زغلول

أحمد أفندى محمود

ابراهيم أفندى الوكيل

أحمد بك حشمت

يوسف بك شوقى

الشيخ محمد عبده

ومما يجب ملاحظته أن هذه القائمة تضم اسم سعد زغلول الذى

عينه كرومر بعد ١٥ سنة وزيرا للمعارف العمومية ، كما تضم اسم الشيخ محمد عبده الذى عين بعد ذلك مفتيا للديار المصرية ، والذى قال عنه كرومر إنه الأمل الرئيسى للاصلاح الاسلامى فى مصر ، ومع ذلك أضاع كرومر فرصته الحقيقية حين تجاهل توصيتى بحسن الشريعى الذى كان ثقله السياسى أكبر من ثقل أى من هؤلاء ، وقد مات قبل أن يقنع بارنج نفسه بقبول وزارة من الفلاحين . ومع ذلك فقد أجاب بارنج : « لا أعتقد أن هناك أدنى فرصة لأن يشكل الخديو وزارة من الفلاحين »

٢٠ يناير ١٨٩٢

زارنى الدكتور عبد الرزاق بك .. الذى كان أحد الأصدقاء الشخصيين لعرابى وأحد كبار مستشاريه ، فهو يعرف أوربا جيدا ويتحدث الانجليزية والفرنسية ، مما كان نادرا فى ذلك الوقت . وبناء على نصيحته ونصيحة الشيخ محمد عبده الذى كون رأيا مؤيدا للخديو الشاب عباس بعد اعتلائه العرش محل أبيه (توفى فى يناير من ذلك العام) قررت أن الوقت قد حان أمامى لعقد صلح رسمى مع الحكومة المصرية . وقد كان من الصعب على أن أفعل هذا فى حياة توفيق ، لأننى اشتركت فى الثورة على نحو بارز أكثر من اللازم ونددت بتوفيق علنا بعدها الى درجة تجعل من المستحيل علىّ أن أتخذ أى خطوة نحو الصلح أو أن أقدم احتراماتى اليه بالمثول الى القصر ، ولكن أصدقائى رأوا عند ذاك وجوب السعى فى طلب لقاء خلفه . وبناء على ذلك طلبت من بارنج أن يقدمنى الى عباس بطريقة رسمية على نحو ماجرت عليه العادة مع سواى من الانجليز الذين يزورون مصر . (قام بارنج بالمهمة وتم التعارف فى قصر عابدين فى أول فبراير ١٨٩٢)

٢٤ فبراير ١٨٩٣

جاء الشيخ محمد عبده على الغداء ومكث معنا طوال فترة

العصر . ولم آكن قد رأيته منذ الانقلاب (تعبير تقديرى عن سياسة كرومر المتسلطة) وكنت متشوقا لسماع رأيه . وهو يؤيد رياض بوضوح ويقول إنه رجل يعتمد عليه بعكس تيجران (باشا الأرمنى وكيل وزارة الخارجية) أو بطرس (غالى باشا) فتيجران وأرتين (نوبار باشا رئيس الوزراء الأرمنى) والمسيحيون عموما يبذلون كل مافى وسعهم للقضاء على التربية الاسلامية . اما رياض فهو مستبد ولكنه شريف . ثم أبدى رأيه فى مختلف رجال الانجليز العاملين بمصر . ويقول إن أفضلهم سكوت وجارستين وكوربيت ، وإن النفوذ الانجليزى لم يتحطم فى السنوات الأخيرة إلا باستقدام كثيرين من الانجليز القليلى الشأن . وضحك كثيرا عند ذكر والاس ومدرسة الزراعة التى أنشأها - كان الأساتذة فيها يستقون معلوماتهم عن الزراعة من الفلاحين - وكذلك عند ذكر ويلكوكس وإصلاحاته فى اللغة العربية . وهو سعيد جدا لأننى سأقابل الخديو ويريدنى أن أركز على إفهامه ضرورة التعاون مع رياض ، والاستعانة بشباب المسلمين ، لا بالأرمن ولا بالشوام ، ومراعاة الدستور . وقال : « نحن لايهمنا أن يبقى الانجليز عاما أو عامين أو خمسة أعوام ماداموا لن يبقوا الى الأبد . ووجودهم حاليا خير للبلد حتى يختمر حزب الفلاح . ولكن إذا لاح خطر السيطرة علينا فنحن على أتم استعداد للمخاطرة بقبول بعض استبدادالأتراك أفضل من قبول المخاطرة الأخرى الأكبر أما إذا جلوتم عن البلاد غدا فثق أننا سنسعد جميعا » وأغلب الظن أن عبده هو أكثر المصريين حبا للانجليز .

٢ ابريل

ذهبت الى القاهرة (من عين شمس) حيث صحبت سلطان يوهور (المسلم الذى جاء من الملايو فى جنوب شرق آسيا لزيارة مصر فى طريقه الى تركيا) إلى الشيخ البكرى (نقيب الأشراف) وقمت بدور المترجم له ... وراح يروى عن حبه الجلوس على الأرض

وتناول الطعام بأصابعه كلما ضمه البيت مع زوجته وأمه وأراد أن يعرف ماإذا كان أحد فى القاهرة يفعل ذلك ، ولكن القاهرة تنتشر فيها المقاعد والأرائك الأوربية . وقد وعدناه بأن نريه ذلك أيضا . ومن المفروض أن يذهب لزيارة محمد عبده .

وذهبت بعد ذلك بمفردى فى صحبة محمد عبده لزيارة مختار باشا (مندوب السلطان العثمانى فى القاهرة) وتحدثنا طويلا عن الموقف السياسى ...

١٢ ابريل

تناولت الغداء مع تيجران . واعتقد أنه متحمس فى وطنيته مع أنه أرمنى ... ويرى أن محمد عبده خير من يتولى إصلاح الأزهر وطلب منى إرساله إليه .

٣١ ديسمبر

تناول محمد عبده الغداء معنا يوم الجمعة . وهو راض تماما عن الطريقة التى تجرى عليها الأمور هنا . ويقول إن رياض يتعاون مع الخديو جيدا ، ويوافق على عمل المجلس التشريعى . أما بالنسبة للقسطنطينية فيقول إن السلطان مجنون ولاجدوى من التعاون معه . ولما تحدثنا عن جامعة الأزهر (المقصود الجامع الأزهر) قال إنه لايوجد سوى شيخ واحد يصلح شيخا للأزهر على أساس مستنير ، وهو حسن الناوى (المقصود حسونة النواوى)

١٥ ابريل ١٨٩٤

قضى محمد عبده اليوم معنا . ويقول إن الحزب الوطنى أصابه اليأس نتيجة استقالة رياض ، ومازال أكثر يأسا بسبب عودة نوبار الى الحكم ، لأن نوبار يعنى عهد جامعى المال والمضاربين وحكم مصر بالأوربيين والشوام والغرباء من كل أرض .

٢٠ ابريل

آخر يوم لنا فى « الشيخ عبيد » أصابنى الحزن لتركى له هذا العام أكثر من أى عام مضى ، وقد استقر رأيى - إلى حدما - على أن تكون هذه آخر زيارة لى لانجلترا . فبيتى الحقيقى فى مصر وهذا مايزداد فى نفسى مع الأيام ...

(يروى بعد ذلك عن فشل الحركة الوطنية فى سنتى ١٨٩٢ - ١٨٩٤ لغياب الزعامة القوية وصغر سن الخديو عباس وعدم خبرته ، وإصرار اللورد كرومر على المضى فى السياسة الاستعمارية، فضلا عن مصالح المال فى لندن وباريس ثم يقول :)

لقد كان التاريخ يكرر نفسه مئات المرات ، تاريخ التلاعب الانجليزى بولايات الأهالى فى الهند ، وكان المشهد فى نظرى محزنا ، فهى فترة خاوية ، اتخذت خلالها - برغم احتفاظى بالاهتمام العميق بما كان يجرى - موقع المتفرج كلية ، دون أن أفقد صلتى بالسياسة المحلية اليومية خلال زيارتى الشتوية للشيخ عبيد . وكان مصدرى الأساسى فى هذه الصلة هو الشيخ محمد عبده الذى أسكنته بيتا ريفيا على قطعة من أرضى تبعد عن بيتى نحو نصف ميل . وكان له فضل علىّ كمؤرخ وكاتب يوميات يتمثل فى كونه صديقا حميما لمصطفى فهمى (باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وحمو سعد زغلول) الذى لم يكن يخفى عليه شيئا ، ولا كان عبده يخفى عنى شيئا .

٣٠ نوفمبر

تناول الشيخ محمد عبده الغداء معنا . ويقول لى إن أفكار الخديو لم تتغير عما كانت عليه فى السنة الماضية ، ولايزال حانقا على كرومر والاحتلال ، وإن السلطان منعه من إتمام زيارته لانجلترا فى الصيف الماضى ، عدا أشياء كثيرة أخرى . ولكن الخديو عطوف جدا عليه (عبده) الآن ، استقبله مقابلة خاصة دامت ٣٥ دقيقة ، حقق خلالها رغبته الطويلة فى منحة قدرها ٢٠٠٠ جنيه سنويا لجامعة الأزهر . وقد تقرر تشكيل لجنة للاشراف على إنفاق المبلغ . غير أننا تحدثنا عن الأحداث

القديمة . وروى لى مرة أخرى تاريخ اغتيال اسماعيل صديق المفتش (وزير مالية الخديو اسماعيل) على يد اسحق بك فوق ظهر باخرة الخديو ، فقد خنقه اسحق بيديه . ويقول إن هذا قد تم فى النهر بلا شك ، أمام قصر الجزيرة ، فور اعتقال الخديو لاسماعيل صديق . كما روى لنا قصة مغامرة على باشا شريف مع الرقيق . فقد اعتقل قومنا (الانجليز) فى الفترة الأخيرة على باشا شريف بتهمة الاتجار فى الرقيق ، مع أنه ربما كان أكبر الشخصيات الحالية فى مصر سنا وأكثرها احتراما ، فضلا عن أنه رئيس المجلس التشريعى . ومع ذلك فقد تصرف (هذا) الباشا بغباء شديد مثل « الأطفال » على حد تعبير عبده . وحقيقة الأمر أنه بدأ يعانى من تهريف الشيخوخة ومع ذلك تعلق على نحو غبى بامرأة راح ينفق عليها وقته وماله ، واشترى لها العبيد . كما روى لنا (عبده) عن مشروعات نوبار الحالية لجمع المال وهو فى الحكم ، وكذلك عن فضائح أخرى وقعت خلال الصيف .

٢٨ نوفمبر ١٨٩٥

... نزلت اليوم إلى القاهرة وقابلت اللورد كرومر فقال لى أنه أرسل الى كتشنر (الجنراك اللورد حاكم السودان) خطابى الذى كتبته[١] وسوف يبلغنى بالرد عند وصوله . ثم حدثنى عن أشياء أخرى وعن إمكان تعيين محمد عبده رئيسا للأوقاف[٢] . وقد أيدته فى هذا كل التأييد بلاشك .

١٦ ديسمبر

نزلت الى القاهرة لمقابلة الخديو (عباس الثانى) ... سألنى عن الأحوال فى الجزيرة العربية ، وقال لى إنه استقبل ابراهيم بن

---

(١) كان بعض أهالى دنقلة قد شكوا لبلنت من رفض الانجليز عودتهم الى ديارهم ، وطلبوا تصريحا بذلك فكتب بلنت الى كرومر معززا مطلبهم .

(٢) ربما قصد « وزيرا »

ثنيان (ابن سعود النجدى الذى كان لاجئا فى الأستانة ثم فر الى مصر) ولكن الشيخ محمد عبده حذره من آن يكون جاسوسا للشيخ أبى الهدى (الصيادى مستشار السلطان ومنجمه) فقلت له آننى لا أعتقد هذا ولكن لا مانع من الحرص .

١٦ يناير ١٨٩٦

جاء محمد عبده وم . أرمينيان (أرمنى مصرى موظف فى الحكومة) وتحدثت مع عبده حول موضوع الجلاء بشكل شامل . وهويقول أنه برغم صلته الوثيقة بالخديو فليس من المفيد أن يوثق فيه فيما يتصل بالسلطة - ويجب أن تستقل عنه الوزارة على قدر الامكان ، وآن تستند الى دستور . ويعتقد أن هذا أمر اساسى ، ومن الممكن إيجاد رجال أكفاء يستطيعون كوزراء آن يصدوا تغلغل الخديو ، من خارج نطاق الموجودين حاليا فى الوزارة الذين هم مجرد دمى . وليس من المفروض عزل الوزراء مادام مجلس النواب يؤيدهم . وإذا استطعنا الحصول على تاييد الفرنسيين لهذه الخطة فإن الجلاء أمر فى غاية البساطة .

١٤ مارس

زارنى محمد عبده اليوم ، ويقول لى إن هناك احتمالا الآن بالسماح بعودة عرابى ، إلى قبرص أولا ثم الى مصر . وقد حدثه عن ذلك مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وقال له إن كرومر لايمانع إذا وافق الخديو . وإذا صح هذا فلابد من تدبير الأمور .

٢٤ مارس

زارنى الشيخ محمد عبده وروى لى عما يجرى فى القصر . فهو يقابل الخديو الآن مرتين فى الأسبوع ويؤم الناس للصلاة يوم الجمعة فى مسجد (قصر) القبة ، ويحذف اسم السلطان (العثمانى) من الدعاء . وقد كان مع الخديو قبل قليل ، وفى آثناء

ذلك جاءت رسالة من اللورد كرومر يشكو فيها من إعلان الخديو فى حديث خاص عن رفضه فكرة حملة دنقلة . ولكن الخديو غضب جدا من الرسالة ، وبعدها استقبل اللورد كرومر فكرر عليه شكواه . ورد الخديو بأنه سبق أن اتفق مع جنابه حول هذه النقطة ، فاعترض اللورد كرومر وقال إن الموافقة تمت على هذا وإن من اللازم إضفاء الجدية والقبول عليها ، ورجا الخديو أن يتحدث الى الجنود بهذا المعنى . وقد فعل الخديو ذلك . وجاءه اللورد كرومر أيضا برسالة من اللورد سالسبورى (رئيس الوزراء) يعتذر فيها عن وقوع « خطأ شكلى » من جانب الحكومة الانجليزية حين أمرت بتقدم الجيش نحو دنقلة قبل إبلاغ سموه . وشرح اللورد سالسبورى أن زحف الجيش قد تقرر بهدف « إرضاء الرأى (العام) المصرى » وقد روى الخديو هذا كله لمحمد عبده ، ولا أشك فى صحته .

١٧ ابريل

فى صباح الغد نغادر مصر الى انجلترا . وقد جاءنا محمد عبده أمس ومعه شاب تركى من أنصار الحزب الحر فى القسطنطينية . وكان حتى وقت قريب موظفا فى البنك العثمانى . ولايبدو على أمل فيما يتعلق بما يجرى على ضفتى البوسفور ...

روى لى محمد عبده تفاصيل حول الغارة التى شنت على الزنوج فى مصر . فقد أمسكت الشرطة أكثر من ٨٠٠ زنجى من أجل كتشنر وسلكتهم فى الجيش . وفى بعض المديريات كان أى شخص أسود يتم إمساكه مهما كانت سنه ثم يرسل الى القاهرة ، حيث يتم التحفظ على الصالحين للجندية ويطلق الباقون ليهيموا فى الشوارع . ومع ذلك تتحدث حكومتنا (الانجليزية) عن القضاء على تجارةالرقيق كهدف من أهداف هذه الحرب فى السودان ، ولاشك أن المائتى زنجى الذين أخذهم رودس (سيسيل المستكشف الانجليزى) الى جنوب أفريقيا قد تم شراؤهم من حكومة زنجبار التى جمعتهم من هنا ، وفى الغارة الأخيرة كان

الزنوج ذوو المراكز المحترمة يتعرضون للامساك ، ومنهم ابن بواب الخديو وخادم الشيخ العباسى شيخ الأزهر وكاتب فى المحاكم الأهلية بالقاهرة يتقاضى سبعة جنيهات فى الشهر . وقد تم تخليص هؤلاء ولكن كثيرين جدا غيرهم أرسلوا (الى الحرب)

بين نزوات الخديو عباس واستبداد اللورد كورمر

٩ نوفمبر ١٨٩٦

زارني الشيخ محمد عبده اليوم وتحدثنا طويلا عن الخديو . وعبده غير راض عن بعض تصرفات سموه ، ولاسيما فيما يتعلق بنزاع حول ارض له مع حسن موسى العقاد . (شيخ تجار القاهرة زمن الثورة العرابية واحد الذين حوكموا ونفوا) وهو يصف سلوك الخديو فى ذلك بأنه صبيانى ، وهذا صحيح ويقول ان زواجه (الخديو) كان من تدبير آمه من آوله لآخره . فعندما عاد عباس من آوربا لأول مرة كان يريد آن يبقى أعزبا بعيدا عن النساء ، ولكنه اختار فى النهاية زوجته الحالية . وقد خاب امله من جديد هذا العام حين ولدت له بنتا ثانية بدلا من ولد .

٢٩ نوفمبر

تحدثت طويلا مع محمد عبده قبل أيام . كان قد قرأ مقالى عن أرمينيا الذى نشرته مجلة « القرن التاسع عشر » Nineteenth Century ووافقنى على كل ماذكرته ضد عبد الحميد

(السلطان) وهو يراه رجلا مجنونا يجب خلعه . وروى لى حكاية طريفة عن اضطهاده فى الأزهر من جانب شيوخ العلماء التقليديين فى عصر اسماعيل ، ولاسيما عليش . ويقول ان تلاميذه بلغوا ذات مرة ٤٠٠٠ طالب كانوا يحضرون محاضراته ، ولكن المعارضة المحافظة كانت أقوى منه . ومع ذلك فالقاهرة على قدر كبير من حرية التفكير والتعبير حتى فى تلك الأيام . ولم تسوء الحال هنا من قبل قدر ماهى سيئة الآن فى القسطنطينية ولكن جميع الأفكار البالية فى الحرية والانسانية فى طريقها للاختفاء السريع من العالم . ونحن نجد نفسينا ، عبده وأنا ، وحيدين تقريبا فى آرائنا .

٢٢، ديسمبر

جاءنا محمد عبده أمس . وروى لى الأخبار . فقد حدث لغط كبير بسبب تصديق محكمة الاستئناف الأهلية على براءة الشيخ على يوسف . وكان على يوسف قد قدم للمحاكمة بسبب نشره تلغرافا فى صحيفته « المؤيد » يتصل بالأحداث العسكرية أثناء حملة دنقلة ، وقيل إنه تلقاه من موظف تلغراف يدعى كيرلس . وكان الدليل ضد على يوسف واهيا للغاية ، أما الدليل ضد كيرلس فكان مجرد ظن . فقد شوهد الأخير ذات مرة وهو يقوم بنسخ تلغراف ، بغية إرساله الى احدى الصحف فى الغالب ، ولكنه ليس التلغراف المعنى هنا . أما على يوسف فلم يثبت ضده أى دليل على الاطلاق . ومع ذلك يبدو أن كرومر قد أصر على المضى فى معركة ضد الصحافة ، فلما وصلت القضية أمام محكمة الاستئناف طالب القاضى الانجليزى كاميرون زميليه الوطنيين بأن يدينا المتهم ، وإلا عرضا محكمة الاستئناف الأهلية لاجراءات « إصلاح » قوية تتخذ ضدها . كما اتهمهما بالتواطؤ مع الخديو ، وعندما رفضا بإباء إدانة المتهم رفض كاميرون الجلوس معهما فى جلسة الحكم

بالبراءة . وقد أعلن كرومر الآن أنه سيضيف الى هيئة المحكمة عددا من المستشارين الانجليز حتى يقضى على الأغلبية فى أعضاء هيئات المحاكم من الأهالى . ويؤكد لى عبده أن الحقيقة تبرىء الخديو من أن يكون له اى دخل فى الموضوع ، وان القضاة ماكانوا يستطيعون الحكم بشىء اخر فى وجود الأدلة التى أمامهم ...

ويضيف عبده أن اللورد كرومر خاضع لتأثير بعض الشوام ، ومن أهمهم محرر جريدة « المقطم » وشخص يدعى شكور . وقد أصبح للصراع والنزاع بين كرومر والخديو طابع شخصى جدا . (كان محرر « المقطم » هو فارس نمر (باشا) الذى تعاون مع الانجليز منذ هجرته من بيروت مع زميله يعقوب صروف محرر « المقتطف » سنة ١٨٨٤ . فلما صدرت « المقطم » سنة ١٨٨٨ حافظت على صلتها بالانجليز حتى توقفها مع زميلتها فى أواخر ١٩٥٢ بعد ثورة يوليو أما شكور الذى ذكره بلنت فهو ملحم شكور (بك) أحد المهاجرين الشوام ومن أقطاب الماسونية فى مصر وأعوان كرومر)

١٧ ابريل ١٨٩٧

جاءنى عبده بأخبار عن نشوب الحرب بين اليونان وتركيا . واتفق رأينا على أنه من الأفضل أن تتطور الأمور الى الحرب .

٢٦ نوفمبر

جاء الشيخ محمد عبده لزيارتى . وروى لى مايدور من أخبار السياسة والقصر . وآخرها حول شاب قدم للمحاكمة بتهمة العيب

فى ذات الخديو والتعريض به فى شعره . ويؤكد لى عبده أن المحركين الحقيقيين لهذا الموضوع هم محرم باشا شاهين والشيخ البكرى بالاشتراك مع الشيخ أبى الهدى (الصيادى) فى القسطنطنية . وقد دبروه بهدف ارضاء السلطان . ومع ذلك ورط كرومر نفسه فيه . ولكى يحصل على حكم بالادانة فى القضية ، أو بمعنى الاصح لكى يستر بعض الأشخاص المتورطين فيها من أنصار السياسة الانجليزية قام بتعيين كوربت الانجليزى فى مكان النائب العام المصرى فى المحاكم الاهلية . ومازال الخديو على خصام مع السلطان ، وقد نظمت القصيدة (التى عابت فى الخديو) لارضاء جلالته ، ولكن من سوء الحظ أن خطأ وقع فى طباعتها حين هجا الشاعر الخديو بأنه « تركى » . وبذلك تساوى يلدز (قصر السلطان) فى الاهانة تقريبا .

(كان الشاعر الشاب الذى هجا الخديو هو مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦ ـ ١٩٢٠) وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

أما البيت الذى ذكر بلنت أنه اساء إلى يلدز فهو :

فلما توليتم طغيتم وهكذا
إذا أصبح التركى وهو عميد

وقد حكم على المنفلوطى بالسجن سنة وغرامة قدرها ٢٠ جنيها ثم عدل الحكم عند استئنافه الى ستة أشهر مع الغرامة ، بالرغم من أن القصيدة (٢٥ بيتا) نشرت فيما يشبه المنشور دون توقيع)

٢٥ فبراير ١٨٩٨

تردد أن كرومر سينقل الى وزارة الخارجية . فالمحافظون يريدون الآن رجلا قويا حتى يحفظون سياستهم القائمة على العنف ، وكرومر يناسبهم . ولست أهتم كثيرا بالطريقة التى تجرى

بها الأمور لأن زمان الرشد قد ولى . ولن يحدث أى غير حتى تتهاوى الامبراطورية . وسيتربع كرومر على صمام الأمان الامبراطورى كما يتربع سواه . وقد جرى بينى وبين محمد عبده حديث طويل اليوم حول هذا وغيره من الأمور .

٩ مارس

غادرت مصر إلى انجلترا . وقد جاء محمد عبده لتوديعى . كنت أعانى ألما بالغا حتى أننى شعرت بأنى أكاد أموت . وفى مثل هذه الظروف منذ عامين كنت لأعلن إسلامى بين يديه ، ولكنى لن أفعل ذلك اليوم ، مع أننى تأثرت كثيرا لفراقه كما لو كنت ألقى آخر كلمات على صديق عزيز ، ولكنى أشعر الآن أن هذا كله وهم . فالمسلمون الذين يؤمنون اليوم لايزيدون على الوحوش المفترسة مثل رجال سيوه ، والباقون فقدوا إيمانهم . ومع ذلك لاتغرينى المسيحية كثيرا . ولست أرغب فى الحياة مرة أخرى ، وإنما أرغب فى فناء القبر .

(لم تتحقق رغبة بلنت على أى حال ، فقد عاش ٢٤ عاما بعد ذلك . ولكن هذه الفقرة الحزينة المؤثرة تردنا الى توضيح نقطتين : الأولى أن بلنت تربى تربية كاثوليكية ولكنه عاش على عداء مع الكنيسة ، والأخرى أن عداءه للكنيسة ومصادقته للمسلمين قرباه من فهم تعاليم الاسلام . وكانت صداقته لمحمد عبده توشك أن تدخله فى زمرة المسلمين . ولكن وقع له فى صحراء الغربية حادث خطير رده عن سبيله الى الاسلام . فمنذ أحداث الحركة المهدية فى السودان سنة ١٨٨٢ بدأ بلنت يتعلق بهؤلاء المجاهدين الزاهدين المسلمين . ثم اشتد تعلقه حين سمع الكثير عن حركة معاصرة لتلك هى الحركة السنوسية فى صحراء مصر الغربية وليبيا ، فصمم على الاتصال بشيوخها ومعرفة تعاليمهم ، ظنا منه ـ كما يقول ـ بأن السنوسية « أفضل المسلمين فى العالم » وفى ٥ فبراير ١٨٩٧ قام برحلة الى مركزهم فى واحة سيوة بصحبة ثلاثة

من البدو وخادم وأحد أبناء قبيلة أولاد على وستة جمال وفرس . ومع أنه كان معتل الصحة وقتها فقد أقبل على الرحلة بحماس شديد ونشاط عجيبين ، برغم طولها ومشقتها . ولكن قافلة هذه سرعان ماضلت الطريق بعد خروجها من الفيوم حتى أخذ يدعو - كما يقول « جميع الدعوات التى عرفتها لشيوخى المسلمين والمسيحيين » وبعد خداع طويل من الطريق والسراب وقعت الواقعة ، وانتهى به الأمر إلى كمين من ٢٠٠ شخص تعرض خلاله للضرب والابتزاز والاهانة ، وسرق ماله وسلاحه ، على أيدى هؤلاء البدو من اتباع السنوسية ، أو أشباه أتباعهم ، لأنه لم يتحقق من ذلك . ولكن مارواه يؤكد أنهم ظنوه جاسوسا للسلطان ، وكان الأخير يحارب السنوسية ، ولولا أن أنقذه معاون سيوه لمات فى أيديهم ثم عاد الى داره محطما مريضا بعد ٤٠ يوما . وتركت هذه الحادثة أثرا فى روحه وبدنه لم تمحه السنون بعد ذلك ، ولكنها لم تفقده عطفه على أصدقائه المسلمين ولاتقربه طوال وجوده فى مصر من المشايخ والأولياء على طريقة حاشية بيته وخدمه ، وقد غادر بلنت مصر محملا بآلام هذا الحادث ، ولم يعد الا بعد ما يقرب من سنتين)

٥ ديسمبر ١٨٩٩

وصلت الى الشيخ عبيد بعد غياب يقرب من سنتين ... وقد استقبلتنى آن فى القاهرة واتجهنا الى البيت فى الحال ، وأسعدنا الحظ بأن نستقل عربة قطار وجدنا فيها الشيخ محمد عبده . ومن دون جميع الشرقيين ، وربما أقول من دون جميع الرجال ، فإن محمد عبده ، أعز إصدقائى ، بعد أن سجن بسبب آرائه الحرة ونفته العودة الخديوية الانجليزية سنة ١٨٨٢ ، قد أصبح بالتدريج معروفا بما هو أهله ، فهو أقدر وأشرف رجل فى مصر - وقد عينوه مفتيا للديار ، وهى أعلى سلطة دينية فى المملكة الشريرة . لقد أعطيته فدانا من الأرض منذ سنتين بنى لنفسه عليه دارا ريفية

وأصبح بذلك أقرب جار لنا . وحين ودع كلانا الآخر عند آخر مغادرة لى لم أكن أظن كثيرا أننا سنلتقى مرة أخرى .

أول يناير ١٩٠٠

... جاء مفتينا محمد عبده خلال فترة العصر . وقرأت عليه خطاب هربرت سبنسر (الفيلسوف الانجليزى وعالم التربية المعروف) الذى شاقه كثيرا ، ثم شرحت له قصيدتى (كانت بعنوان « تخليص الشيطان ») وهو يعد سبنسر على رأس الفلاسفة الأحياء ، وقد ترجم له الى العربية كتابه عن التربية كما شرحت لشقيقه حمودة آرائى حول حقوق الحيوان ، وكان الموضوع جديدا عليه تماما . فقال بعد تأمل فيه إنه يتفق كل الاتفاق مع ماجاء به القرآن وتعاليم الاسلام من احترام للحيوان ، بل للجماد . ولذلك فمن غير المسموح به أن يتعمد أحد تشويه حتى الحجارة . والحق أن المسيحية هى المسئولة بالفعل عن الموقف الوحشى الذى يتخذه الانسان الحديث تجاه الحيوان . ولايوجد دين آخر يستحق أن يسمى بالدين من شأنه أن يتسامح مع هذا الموقف ، ولكن اطباءنا المسيحيين أقروا المبدأ الأخرق الذى يقول إن الحيوان والطير ماخلقا إلا لاستعمال الانسان ومتعته ، وإنه ليس مكلفا بأى واجب نحوهما ... ورأيى الشخصى هو أن الطيور والحيوانات المفترسة التى لاتؤذى الانسان لها الحق فى أن تعيش فى سلام . ولكن الطيور والحيوانات التى نعمل على تربيتها بإضفاء حمايتنا عليها لابد أن تدفع جزية معينة ، تماما كما فى حالة حيواناتنا الأليفة ، بالرغم من أن القانون الأسمى يقضى بترك الجميع فى سلام . وقد تناقشنا فى الليل ، على العشاء ، حول هذه الأمور .

١٠ يناير

كان محمد عبده فى زيارتنا اليوم . وهو يؤكد كل التأكيد ماروى

عن كتشنر من حكايات حول معاملته لرأس المهدى كما كتبتها فى الصيف الماضى بصحيفة « الديلى نيوز » ، ولاسيما مايتعلق برفض كرومر لها وكراهيته لكتشنر . وقد اتفقنا فى النهاية على أن العناية الالهية قد غضبت على هذه الأهوال المقرفة ، وأن امبراطورية انجلترا سيكون مصيرها مصير كل ماسبقها من امبراطوريات .

٢٨ يناير (الأحد)

جرى بينى وبين محمد عبده حديث طويل حول موضوع البشرية ومعاملة القوى للضعيف . وقد وجدته متشائما مثلى . فقد طالع التوراة مؤخرا ووجد أن فظائع المسيحية ترجع على نحو واسع الى صلتها باليهودية . أما بالنسبة لمعاملة الحيوانات العجماوات فقد روى لى عددا من الأحاديث النبوية التى تحض على الرأفة ، ولاشك أن القضاء المتعمد على هذه الحيوانات مخالف لعواطف المسلمين والقضاء المتعمد أيضا غريب على المسيحية . وعبده لايعتقد أن مستقبل البشرية زاهر . وأخشى أن يكون إيمانه بالاسلام ضعيفا ، بالرغم من أنه مفتى الديار ، مثل ضعف إيمانى بالكنيسة الكاثوليكية .

٢٩ يناير

... دارت بينى وبين محمد عبده أحاديث عدة أخرى . ويقول إن عددا كبيرا من كبار الموظفين الانجليز هنا يجمعون المال بطرق غير مشروعة . وهو لايؤيد كثيراً تدويل مصر ، ويتفق معى فى ذلك ، لأن التدويل لايعنى أكثر من إحلال عصبة من الذئاب محل ذئب واحد . وهو يشعر بالمرارة إزاء كرومر ، الذى يميل اليه برغم ذلك ، لانه لم يؤسس شيئا يعول عليه من الحكم الأهلى حين ينتهى الاحتلال - أى شيئا يمكن التعويل عليه فى العمل على الأسس الحرة والشريفة . فقد نشر حالة عزل عامة للعنصر الوطنى

والمستنير فى البلاد ، والذين رقاهم فى المناصب هم أولئك الذين كان لديهم أدنى حد من الاحترام لأنفسهم وكانوا بالتأكيد ممن يسهل التأثير عليهم .

١٥ فبراير

٠٠٠ كان محمد عبده فى زيارتى فى فترة مابعد الظهر . وروى لى القصة الحقيقية للأزمة العسكرية فى الخرطوم . فقد كان كتشنر مكروها منذ فترة طويلة من جانب الضباط المصريين الذين عاملهم طول الوقت معاملة سيئة ، وسمح للضباط الانجليز بالتعجرف عليهم وإهمال شكاواهم وكان يجبر القوات المصرية على القيام بالاعمال الشاقة ، دون أى شكر أو ثناء ، فى حين شمل القوات السودانية بالعطف والتدليل . فلما ساءت الأحوال فى رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) انزعج كتشنر وحاول منع أى أخبار عن الهزائم الانجليزية من الوصول الى السودان ، ولكنه لم يستطع ايقاف تسربها ثم خشى أن تحدث حركة عصيان فأمر بنزع الذخيرة بحجة أنها قديمة ولابد من تجديدها ، ولكن الكتائب السودانية رفضت تسليم الذخيرة القديمة حتى تسلم الجديدة ، وعنذاك ارتاب فى الضباط المصريين وعزا اليهم تشجيع الرفض واعتقل بعضهم وفى خضم هذا كله استدعى كتشنر للذهاب الى جنوب افريقيا وعهد الى وينجت باصلاح الوضع وكان محبوبا أكثر من كتشنر ، بالرغم من أن الوضع لم تتم تسويته بعد .

ويقول لى عبده ان الفكرة الآن هى دعوة القوات التركية للحلول محل حاميتنا الانجليزية فى حالة إثارة الدول الأوربية للمسألة المصرية . وهذا أقل ضررا من قدوم قوات فرنسية أو ايطالية ، مما سيكون معناه تدويل مصر . ومحمد عبده يعرف أن الموضوع نوقش بين الوزراء ومع اللورد كرومر وأنا أميل الى الأمل فى أن ينتهى الموضوع حقيقة على هذا النحو لأنه يبدو أنه لاتوجد فرصة

إمام أى جلاء فى مصلحة حكومة اهلية مصرية وعبده له رأى حسن فى كرومر كشخص . ولكنه يقول إن هناك عددا من الأمور المريبة التى قام بها مرؤوسوه .

٩ نوفمبر

زارنى محمد عبده اليوم . وكان قد قابل الخديو الذى عاد من انجلترا فى غاية السرور من المعاملة المهذبة التى احاطته بها الملكة (فيكتوريا) وأمير ويلز والحكومة ، ولكن حدث ماسبق أن تنبأت به له . فلم يجر أى حديث حول أمور مصر السياسية ، بالرغم من الحديث الذى جرى حول الأمور السياسية فى القسطنطينية . وقد أرسل (الخديو) شكره لى مع عبده ، وقال انه كان ينوى الذهاب الى كرابيت (بيت بلنت الريفى) بناء على دعوتى مالم يكن اعتلال صحته قد عاقه عن ذلك . وقد اثنى عليه محمد عبده لمقدرته على الظهور بالمظهر اللائق حين يريد كما فعل فى انجلترا ، ولكنه ذكر أنه (الخديو) التزم جانب الحذر الشديد بعد ذلك . فقد روى كل ماحدث له هناك لمحرر « المقطم » الذى بادر بنشره .

(عند هذا الحد ينتهى ذكر محمد عبده فى الجزء الأول من يوميات صديقه بلنت . كما ينتهى الجزء نفسه بعد قليل بانتهاء القرن التاسع عشر . ومن الواضح فيما مر بنا من يوميات أن العلاقة بين الصديقين قد توطدت كثيرا خلال تلك الفترة ، بعد عودة عبده من منفاه ، وأن علاقة عبده بالخديو وكرومر وغيرهما من أولى الأمر قد توطدت بدورها وأهلته لتولى منصب الافتاء الذى شغله حتى وفاته . وكان بلنت خلال تلك الفترة دائم الرجوع الى صديقه فى كل مايتعلق بتسجيل الأحداث وتطوراتها . وقد شهدت أشهر الصيف من ذلك العام الأول فى هذا القرن بعض الأحداث التى لم يشهدها بلنت بسبب تغيبه فى لندن ، ومنها ماسماه هو

بقضية صيد الثعالب . وملخصها أن بعض الضباط الانجليز قاموا بمطاردة الثعالب واصطيادها فى المنطقة المحيطة ببيته فى عين شمس فتعرض لهم خفراؤه الخصوصيون واشتبكوا معهم . وكانت النتيجة اعتقال هؤلاء الخفراء . ولما علم بلنت بالحادث احتج عليه لدى حكومة بلاده التى نصحته بترك الأمر للقانون . ومن أحداث ذلك الصيف أيضا سفر صديقه عبده الى سويسرا لعقد قران احدى الأميرات المصريات . ولكن أهم حدث فى الحقيقة كان عودة عرابى وزملائه من المنفى بعد مايقرب من ٢٠ عاما . وكان من الطبيعى أن تشغل هذه الأحداث الصديقين عند لقائهما فى القاهرة بعد عودة بلنت .

لقد بدأ القرن العشرون وقد تجاوز الصديقان سن الستين ، وهدم الدهر كثيرا من آمالهما ، ولكن بقى لهما ذلك الحنين المشترك الى الماضى والذكريات الكثيرة الحافلة)

٢٤ أكتوبر ١٩٠١

قضيت اليوم فى « الشيخ عبيد » وجاءنى محمد عبده فأمضينا معا فترة الصباح . يقول لى انه أثار على نفسه غضب الخديو بسبب قيامه بعقد قران احدى أميرات الأسرة الخديوية فى سويسرا خلال هذا الصيف . وكان الخديو قد أذن بهذا الزواج ولكنه اعتزم التنصل منه . ثم ناقشنا قضية صيد الثعالب . وهو يؤكد لى أنها لا تتضمن مجرد خرق القانون فحسب وانما تتضمن أيضا العدوان على الشرعية من جانب السلطات الانجليزية . ثم تحدثنا عن عودة عرابى . ولكن محمد عبده يلومه على اتصاله بالصحف والتصريح لها بأن كل ماقام به الانجليز فى مصر خير ، دون أن ينتظر حتى يتأكد من الوضع الحقيقي للأمور . وقد أوقعه ذلك فى مشكلة مع المسئولين المصريين الذين قابلوا تصريحه

بالتجاهل ، بالرغم من أن عامة الناس مازالت متعلقة به ، فالأولاد يتبعونه فى الشوارع صائحين : « الله ينصرك يا عرابى » وحين يذهب الى المسجد للصلاة يأتى اليه الفقراء ويقبلون يديه . وعبده غير راض عن هذا ، ولم يذهب لزيارته ، ولكنى اعتقد أننى حثثته على الاستفادة من شعبية الرجل ، ووعدنى بمقابلته عند مجيئه الى بيتى . وأنا ممن يؤيدون الرأى القائل بإمكان الاستفادة من عرابى على نحو مثمر فى قضية حرية مصر ، وان كانت شعبيته عند العامة تثير دائما الغيرة فى نفوس الأغنياء .

٢٦ أكتوبر

جاء عرابى اليوم على الغداء بصحبة على فهمى وصديقهما الطبيب . ومازال عرابى متمتعا بصحته وعافيته ، تبدو لحيته البيضاء لائقة عليه تماما . وقد وجدته بسيطا ، ودودا ، شديد الشكر لجميلى . ويبدو أن برقية تهنئتى التى تسلمها فى ٢٣ مايو كانت أول خبر يتلقاه (فى سيلان) عن اطلاق سراحه والعفو عنه اللذين لم يبلغا اليه رسميا قبل السادس والعشرين . وقد تبادلت معه حديثا طويلا حول الموقف الذى يجب عليه اتخاذه ازاء الشئون السياسية ، وسرنى انى وجدته يحمل أراء محددة . ولكنى اعتقد أنه واثق أكثر من اللازم فى النوايا الانجليزية الحسنة بعد أن لم يلق فى منفاه سوى المعاملة الكريمة . وله الحق فى أن يكون شاكرا للجميل . وفيما عدا ذلك فرأيه لا يختلف كثيرا عن رأيى أو رأى عبده . وقد نصحته بأن يقنع بما صرح به على الملأ (فى الصحف) وأن يقابل الخديو اذا وافق الأخير على استقباله ، وكذلك اللورد كرومر . انه يتمتع بقسط كبير من العزة والصراحة والصدق بحيث يفيده حضوره الشخصى كثيرا .. ثم جاء محمد عبده فتعانقا وراحا يتحدثان حتى أزف موعد الغداء ، بل استمرا

يتحدثان على الطعام وبعده لمدة ساعة أو أكثر ، وهما يتذاكران التجارب الماضية ويتناقشان حول رجال العصر . وكان اللقاء ناجحا للغاية ، أثر فى كل منا من نواح عدة فى الحقيقة .
(غادر بلنت مصر بعد ذلك فى ٣٠ ديسمبر ثم عاد مرة أخرى بعد نحو عام ، وعاد ذكر محمد عبده)

٤ ديسمبر ١٩٠٢

وصلنا الى الاسكندرية عند الفجر ... ووصلنا الى البيت قبل مغيب الشمس بساعة كاملة ، ووجدنا فى انتظارنا على محطة القاهرة حمودة عبده (شقيق محمد عبده) الذى نال رتبة البكوية وقتذاك . أما أخوه المفتى فقد سافر الى أسوان ، قبيل وصولنا لحضور افتتاح خزان النيل الكبير .

١٩ ديسمبر

جاء مفتى الديار وجلسنا نتحدث هذا الصباح لمدة ساعتين وكان قد ارسل لى كتاب « فتح العرب لمصر » من تأليف بتلر الذى تلقاه هدية . ورحت أشرح له محتويات الكتاب لأنه لا يقرأ الانجليزية ومن رأيه أن نظرية بتلر عن المقوقس وانطباقه على سايروس الملخى بطريرك الاسكندرية عاطلة من الصحة . ويقول إن المؤكد أن المقوقس كان قبطيا وحاكما على مدينة ممفيس ، وأنه وسواد القبط أيدوا الفتح العربى الذى خلصهم من طغيان الرومان . فاذا لم يكن هذا صحيحا فكيف استطاع الأقباط الحصول على تلك الشروط المجزية من عمرو (بن العاص) والتمتع بالحرية والحكم الذاتى اللذين تمتعوا بهما طوال قرون عدة بعد ذلك ؟ ولم يتعرض الأقباط للاضطهاد إلا مع الحروب الصليبية ، ولا سيما حملة القديس لويس (الملك لويس التاسع

الفرنسى) على مصر ، حين أعلنوا تأييدهم للغزاة . ثم تحدثنا أيضا عن الشئون المعاصرة فى القسطنطينية . والخديو الآن على خصام مع السلطان بعد أن استقبله الأخير هذا الصيف استقبالا فاترا . فقد رفض عبد الحميد أن يستقبله على الاطلاق مالم يعد بعدم ذكر مسألة (جزيرة) ثاسوس . وهذه هى مسألة ثاسوس : لقد أساء الخديو تصريف الأمور فى هذه الجزيرة التى يملكها بالرغم من أنها ليست قطعة من مصر . وبلغ من سوء تصريفه أنه فرض على أهل الجزيرة الضرائب والرسوم الجمركية على الاستيراد حتى شكوه الى السلطان الذى اتخذ الشكوى ذريعة لارسال قواته الى هناك فى صورة حامية . وكان الخديو يطالب باجلاء الحامية ، ولكنه لم يتمكن من عرض دعواه فى القصر .

وعباس واقع الآن تحت تأثير سيدة مجرية أصبحت عشيقته . وكانت بصحبته عند وقوع حادثة سيارته منذ اسابيع . فقد ضل طريقه وهو عائد ليلا من الدار البيضاء وغاصت عجلات السيارة فى الرمال . ورفض الخفراء مساعدته فحكم عليهم بالاشغال الشاقة لمدة أسبوع ، ووصل الخبر الى الوكالة البريطانية (المعتمد البريطانى) حيث تسبب فى نزاع نشب هناك ضده . كما تحدثنا عن مدحت باشا (والى سوريا السابق وأحد زعماء تركيا الذين سجنهم السلطان) ووفاة السلطان عبد العزيز . ويؤكد عبده الرواية التى ذكرها لى الدكتور ديكسون (طبيب السلطان) عام ١٨٨٤ ومؤداها أن الوفاة كانت انتحارا مؤكدا ولم تكن طبيعية . ويروى لى أيضا كيف تم تجويع مدحت حتى الموت فى سجنه بمدينة الطائف . فقد قدموا له خبزا جافا بلغ من جفافه أن الرجل العجوز كسر أسنانه وهو يحاول تناوله ، ولم يسمحوا له بأى راحة من أى نوع ، لقضاء حاجته ، فى زنزانته ، حتى أسلم الروح من سوء المعاملة ، ثم جزوا رأسه وأرسلوه الى القسطنطينية . أما عبد الحميد فقد قال عنه عبده انه أكبر « مجرم » على قيد الحياة ،

وهذه كلمة شديدة ليس من اللائق أن يستخدمها مفت للديار فى وصف خليفته .

٢٢ ديسمبر

(روى بلنت أن صحيفة عربية فى القاهرة نشرت قصة مختلقة عنه ، وكيف أنه أيرلندى المولد يكره انجلترا بالوراثة ، لم يكن على ثراء ولكنه تزوج ابنة لورد انجليزى كبير بشرط أن ينتقم لأبيها الذى أغتيل وهو يتنقل فى أنحاء الدولة العلية ، وترك أربعة ملايين جنيه ففرضت ابنته ذلك الشرط على خطابها ، حتى تقدم لها بلنت ووافقت عليه . ومنذ ذلك اليوم تزوجا وكرس هو حياته من أجل القضاء على الامبراطورية العثمانية عن طريق اثارة العرب لاعلان الخلافة العربية واستعادتها من الترك .

الخديو يكيد له
واللورد يرضى عنه

لم تكتف الصحيفة - التى لم يذكر بلنت اسمها - بهذه القصة المختلقة عن حياته ، وانما زادت عليها أنه تسبب فى حالة الفتور القائمة وقتها بين السلطان والخديو عن طريق الدسائس ، وأنه تسبب أيضا فى الحرب الدائرة وقتذاك بين ابن رشيد (النجدى) ومبارك شيخ الكويت . وذكرت الصحيفة أن بلنت زود الأخير بالسلاح والعتاد . ويبدو أن القصة كلها من تدبير السلطات الانجليزية التى كان يهمها الايقاع بين الوطنيين وبلنت ومع ذلك لم يشر بلنت الى أنه سيقوم بتكذيب القصة ، ولكنه أشار الى أنه تحدث عنها مع صديقه الوفى محمد عبده :

« ناقشت الموضوع مع محمد عبده الذى اقترح على أن أجعل هذه القصة فرصة لنشر القصة الكاملة - بالعربية - لاتصالى بشئون مصر سنتى ١٨٨١ -٨٢ . »

(ومن هذا الاقتراح - كما يقول بلنت بين قوسين - نما العمل الذى شغله طوال شتاء ذلك العام (١٩٠٢) بالاشتراك مع المفتى ، ونشر فى طبعته الأولى بعد خمس سنوات تحت عنوان « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى فى مصر »)

أول يناير ١٩٠٣

احتفلنا بالسنة الجديدة التى وافق مطلعها اليوم الثانى من شهر

شعبان ، بتناول الغداء مع المفتى ، وتحدثنا عن أيام الماضى السياسية سنة ١٨٨٢ .

(فى ٢٢ يناير روى بلنت أن ادوارد براون الأستاذ بجامعة كيمبردج والمستشرق المعروف زاره فى بيته ومعه رسالة توصية من ألفرد ليال صديق بلنت وأحد كبار المسئولين الانجليز فى الهند . وقد أبدى بلنت اعجابه ببراون ووصفه بالذكاء كمستشرق يجيد الفارسية والتركية والعربية . وقال أنه يتردد على محاضرات محمد عبده عن القرآن فى الأزهر . وفى ٣٠ يناير كتب بلنت أن محمود سامى البارودى زاره بصحبة محمد عبده ولم يكن قد رآه منذ زيارته للمنفيين فى سيلان قبل ١٩ سنة . وكان قد كف بصره تقريبا لا يكتشف طريقه بغير أن يقوده أحد من يده . وفى ٨ فبراير كتب أن حمودة عبده روى له أنه دعى مؤخرا الى حفل راقص عند الخديو فرأى هناك نساء عاريات ، فاشمأزت نفسه من ترك رجالهن لهن هكذا ، فقد كن عاريات الصدور حتى الخصر . ولما سأل عن حقيقتهن قيل له انهن زوجات المسئولين الانجليز ، ومن هؤلاء قاضى محكمة الاستئناف الذى ترافع أمامه حمودة كثيرا وقد رأى القاضى نفسه والخديو أيضا يراقصان النساء ، فشعر بالخجل واضطر الى الانصراف بعد أن شاهد الخديو يشرب الخمر التى كانت تدار على الحاضرين . وقال ان الخديو اذن لحريمه بالتفرج على مايدور من وراء الستائر . وعلق بلنت على هذا كله بقوله : « ياصديقى العزيز لعلك لا تدرى أن هذه طريقتنا فى تحضير الشرق . انتظر عشرين سنة أخرى تر كل قضاة مصر ، ومنهم أخوك المفتى ، يراقصون النساء العاريات أكثر من ذلك . ومن يدرى . ربما يذهبون الى هذه الحفلات ورؤوسهم عارية »

١٦ يناير

أمضى محمد عبده ساعة معنا روى لنا خلالها تاريخ سنة ١٨٨٢ ... وبعدها سألت المفتى عن السببُ الحقيقى لمذبحة ١١

يونيو فى الاسكندرية فقال : « انه الخديو وعمر لطفى (محافظ المدينة) بدون أدنى شك » ولما سألته عن الكيفية التى عرف بها هذا السبب قال :

« ذهبت الى الاسكندرية فى اليوم التالى للمذبحة . وهناك اتيح لى الاطلاع على البرقية التى بعث بها الخديو الى عمر لطفى . وكان نصها : « عرابى ضمن الأمان للأوربيين ، ولك أن تختار بين خدمتى وخدمته »

وقد كان عبده مهيأ لمثل هذه المعرفة . فقبل اسبوعين من وقوع المذبحة نشرت صحيفة تدعى « المحروسة » ، كان يحررها أحد الشوام المسيحيين ، مقالة تضمنت اشارة الى أن اليونانيين فى الاسكندرية يتسلحون بالاسلحة . وحذرت المقالة المسلمين بأنهم اذا فكروا فى قتل المسيحيين فإن المسيحيين أيضا ينوون قتلهم . وبسبب ذلك اضطر عبده ، بصفته مديرا رسميا للمطبوعات ، الى ايقاف صحيفة « المحروسة » على أساس أنها تشكل خطرا على الأمن العام .

لقد تم تدبير حوادث الشغب على الوجه التالى :

قام الخديو باستدعاء أمبرويزى سيناديتو الذى كان على علاقة حميمة به ، وكلفه بتقديم المال لتسليح اليونانيين فى الاسكندرية . وقام عمر لطفى من جانبه باصدار التعليمات لحكمدار الشرطة الذى تولى تحريض المشاغبين والاشتراك مع رجاله فى حوادث القتل . أما الجيش النظامى فلم يتم استدعاؤه للتدخل الا بعد استفحال القتل . وقد تم الاستدعاء شفويا فى البداية . ولما استفحل الأمر ، وساء الموقف ، صدرت التعليمات بالتدخل كتابة فى النهاية .

ولا يوجد أدنى شك فى أن حوادث الشغب كانت مدبرة . وقد سألت عبده عما اذا كان الانجليز فى ظنه قد علموا بها قبل وقوعها فقال إن أحدا منهم لم يعلم بذلك ، حتى ماليت (القنصل) نفسه . وقد كان الأخير (فى رأيه) رجلا شهما ، حاول بكل مافى وسعه أن يهدىء الأمور ويحفظ النظام القائم . ولكن من المؤكد أن القنصل

الانجليزى قد عرف الحقيقة فى اليوم التالى ، فور العثور على جثث المسيحيين الذين تخفوا فى ثياب المسلمين ، ولم تظهر آثار طعنات حراب بنادق الشرطة الا على بعض الجثث . وهذا هو السبب فى ايقاف التحقيق وعدم المضى فيه . ومع ذلك كان عمر لطفى المدبر الرئيسى للحوادث .

لقد حذر عبده عرابى ، ونصحه بالتخلص من عمر لطفى قبل فترة طويلة على أساس أنه شخص لا يمكن الوثوق به وأنه قد يقوم بعمل شائن فى الاسكندرية ، ولكن عرابى لم يسمع للنصيحة . فقد كان عرابى ساذجا جدا وعنيدا جدا ، يصدق كل من يصفه بأنه رجل عظيم ويثق به . وقد اعترض عبده ذات مرة على موقفه من الخديو ، وقال له ان عليه اما أن يحافظ على الود معه ، وأن يضعه دائما تحت تأثيره ، واما أن يقطع رأسه . ولكن عرابى لم يفعل هذه ولا تلك . بل انه فقد صوابه تماما فى الاسكندرية . وقد سافر عبده الى هناك اثناء قصف المدينة فوجد كل شىء فى حالة متوحشة من الفوضى ، ووجد عرابى عاجزا عن توجيه أو اقرار مايجب عمله ، كما وجد جميع الجنود والمدنيين ، سواء بسواء ، فى حالة من الفزع فقدوا معها صوابهم . وقد كان من الواجب وقتها أن يقبض على الخديو ، وأن يرسل الى القاهرة أسيرا . ولكنه بدلا من ذلك سمح له بالفرار الى الاسطول الانجليزى .

وقد سألت عبده عما اذا كان يعتقد أن الجراكسة الذين اعتقلهم عرابى قد عذبوا فى السجن فأجاب : « كلا ، ولكنهم عوملوا معاملة خشنة »

(هذه اليومية - ١٦ يناير - أوردها بلنت فى ملاحق الطبعة الثانية من كتابه المشهور « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » ولم ترد فى سياق يومياته العادية التى ظهرت بعد ذلك . وقد عقب على ايرادها بأنه راجع موضوعها فى ٩ مارس ١٩٠٥ مع الشيخ محمد عبده ، وحقق معه الموضوع مرة أخرى حتى استوفاه . وأضاف بلنت أن اصرار محمد عبده على اتهام الخديو

وعمر لطفى بتدبير الشغب فى الاسكندرية قبل قصفها هو الذى دفعه ـ أى بلنت ـ الى الاقتناع بها ، وأن الشيخ مسئول عن كل كلمة كتبها هو ـ بلنت ـ عن الموضوع .

ومن الملاحظ على هذه اليومية ، عدا تورط الخديو وعمر لطفي ، أن بلنت يفرق دائما بين المسيحيين والأقباط . فالمسيحيون فى كتاباته هم الاوربيون أو رعايا الدول الاوربية بما فى ذلك الشوام . أما الاقباط فكانوا وقتها متحدين مع المسلمين فى مصر لدرجة أن بلنت كان يكتفى بذكرهم ضمن المسلمين ، ويعنى بالمسلمين المصريين . ومن الملاحظ أيضا أن كل ماورد فى هذه اليومية من تعبير عما حدث فى مذبحة الاسكندرية يرجع اولا وأخيرا الى محمد عبده ، بما فى ذلك أحكامه على عرابى .

وبعد هذه اليومية نستطيع أن نمضى مع السياق المتصل الذى قطعناه ، وأن نصل تسلسل اليوميات بعد ذلك حتى آخر عام ١٩٠٣) .

٢٥ فبراير

نزلت الى القاهرة لأول مرة هذا الشتاء لمقابلة الخديو ... (وبعد أن حدثه الخديو حول عدد من الأمور :) استطرد فشكا من جحود محمد عبده لاستمراره فى مصادقة رجل يدعى رشيد (المقصود محمد رشيد رضا تلميذ عبده ومحرر مجلة « المنار » الذى هاجم الخديو فى احدى مقالاته) كان قد أخطأ فى حقه . وقد دافعت عن المفتى حول هذه النقطة وهدأت من غضب الخديو .

٢٦ فبراير

تغديت عند المفتى حيث وجدت هناك الأستاذ براون أيضا . ومن المدهش أن براون يتحدث الآن العربية بطلاقة مع أنه لم

يعرفها الا كباحث دون أن يتحدث بها من قبل حين جاء الى هنا منذ شهرين . وكان يحضر دروس المفتى فى الأزهر ، ويقول لى انها دروس مثيرة للاعجاب وجريئة جدا ، وأنه (المفتى) حاضر البديهة فى الرد على الاعتراضات التى يوجهها اليه المفسرون التقليديون للقرآن . ثم تحدثت الى المفتى حول شكوى الخديو منه وسوف يكتب الى سموه ويشرح له الخطأ . فالصلح بينهما فى غاية الضرورة بالنسبة للمصالح العامة . وهما قادران بالتعاون فيما بينهما على احداث تأثير كبير ، والخلاف بينهما يحيد كلاً منهما ويفقده نفوذه .

٦ مارس

حضر محمد عبده ومعه الشيخ رشيد الذى تسبب فى غضب الخديو ، ويبدو رجلا محترما . وكان بصحبتهما حافظ ابراهيم ، وهو شاعر فلاح ، تناقشنا معه حول المعلقات . وقد اتفق الثلاثة على أن افضل الشعر العربى ليس شعر الجاهلية ، وانما شعر القرن الثانى للهجرة . وهذا مخالف تماما لأفكارنا الانجليزية ، ولكن مقياس الجودة عند الآذان العربية مختلف عن مقياس الجودة عندنا . فما يعجب المثقفين هنا فى الشعر هو الوزن وليس معنى الشعر . وهم لا يهتمون كثيرا بمظاهر السذاجة والبساطة عند شعراء ماقبل الاسلام ويعدونها من قبيل العيوب ليس غير ، ولا يستطيعون ادراك أية قيمة على الاطلاق فى ملحمة أبى زيد (الهلالى) وقد ادركت أن هؤلاء الرجال الثلاثة لم يرضوا عنى بسبب اعجابى بها .

(عاد بلنت الى انجلترا بعد ذلك ووصل الى لندن فى ٦ ابريل ، أى بعد شهر على التحديد من آخر لقاء له مع محمد عبده فى مصر . وقد حدث أن سافر عبده نفسه فى صيف ذلك العام الى انجلترا . ففى أغسطس ١٩٠٣ وصل محمد عبده الى لندن فى

ثانى زيارة له بقصد مقابلة الفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر .
وكتب بلنت :)

٦ أغسطس

نيوبيلدنجز (بيت بلنت الريفى الآخر) وصل محمد عبده أمس من مصر مع شقيقه حمودة ، وأوصلتهما اليوم الى كرابيت (بيته الريفى الآخر حيث يحتفظ بخيوله) ومنه الى نيوبيلدنجز ... وجلس محمد عبده معى فى مقصورة العربة التى جرتها خيولى العربية الأربعة ، ودار بيننا حديث طويل حول الشئون المصرية .

٩ أغسطس

الأحد . أمضيت وقتا لطيفا مع المفتى خلال الأيام القليلة الماضية . وجرى بيننا اليوم ونحن نتمشى فى غابة نيوبيلدنجز حديث طويل عن الدين . سألته بوجه خاص عن عقيدته فى الملائكة والأرواح . ومع أنه لا ينكر وجودها فقد قال : « لم يحدث أن رآها أحد ، وليس من الممكن معرفة أى شىء عنها . أما الله فمن المستحيل أيضا أن يعرف عنه أحد شيئا . وسألته عن الحياة الآخرة فقال انه يؤمن بها وأنها تضم دارين : دار للسعادة وأخرى للشقاء . ولكنه لا يعرف على أى نحو سيكون ذلك . وهو لا يؤمن بالعقاب الأبدى . ثم تحدثنا أيضا عن حوادث ١٨٨٢ . وتصفح الأوراق التى تتصل بمحاكمة عرابى وحثنى بشدة على نشر تاريخ لتلك الفترة . ومع ذلك فالصعوبة التى تواجهنى هى أن أهم مستنداتى وخطاباتى كتبها أشخاص مازالوا على قيد الحياة . وقد يعترضون على نشرها فى حين أنه بدونها سيكون من المستحيل تعرية دسائسنا الانجليزية بطريقة لا يمكن دحضها . ولا يوجد فى هذه الرسائل شىء شخصى ، فكلها مستندات تاريخية صرفة ،

ولابد أن ترى النور يوما ما ، ويجب أن يكون ذلك اليوم قريبا . ثم ناقشنا فى النهاية الحالة الحاضرة للعدالة فى مصر التى طلب منى محرر صحيفة « المانشستر جارديان » أن أطلعه على معلومات عنها . وأعتقد اننى سأقدر الآن على تلبية طلبه بمساعدة المفتى .

١٠ أغسطس

ذهبت مع عبده الى (مدينة) برايتون (المطلة على القنال الانجليزى جنوب لندن والواقعة فى مقاطعة سكس التى يعيش بها بلنت) لمقابلة هربرت سبنسر الذى جاء عبده الى انجلترا خصيصا لزيارته ، وهو يعده فيلسوفا عظيما ، ترجم الى العربية كتابه عن التربية . وكان سبنسر قد أرسل عربته وسكرتيره المستر تراوتون لاستقبالنا على محطة برايتون . ووجدنا الرجل العجوز (٨٣ سنة وقتذاك) فى فراشه بغرفة مكتبه الخلفية فى برسيفال تيراس (بيته) حيث كان طريح فراشه منذ شهر ابريل . ولم تؤثر النوبة التى اصابته وقتها فى حالته العقلية . فقد وجدناه واضح الأفكار قوى الصوت ، ولكنه كان نحيفا للغاية ، يده مجرد هيكل عظمى . استقبلنا لفترة قصيرة قبل الغداء . ثم استأنفنا حديثنا معه فى الثالثة (بعد الظهر) وحاول فى البداية أن يتحدث بالفرنسية ولكن بتعمد شديد وبحث عن الالفاظ ، ولكن سرعان ما انتقل الحديث الى الانجليزية التى رحت أترجمها لعبده . وقد أخذ سبنسر يشكو من اختفاء « الحق » من ساحة السياسة الحديثة فى أوربا ، واستنكر حرب الترنسفال (جنوب افريقيا) وعدها اعتداء صارخا على الانسانية وقال : « سيأتى على العالم عهد من القوة ، وستنشب مرة أخرى حرب عامة من أجل السيادة تستخدم فيها كل ألوان الوحشية »

وفى زيارة فترة العصر انتقل الحديث الى الفلسفة وسأل المفتى : هل صحيح أن الفكر فى الشرق يتطور على ذات الأسس

التى يتطور عليها الفكر فى أوربا ؟ ورد محمد عبده بأن ماتعلمه الشرق من الغرب شره أكثر من خيره ، ولكن مازال أفضل الفكر وأكثره استنارة واحدا عند الاثنين (الشرق والغرب) وقال سبنسر : اذا تعمقنا الأمور فانى أزعم أن مفهوم القوة الأساسية فى العالم ، أو ماتسمونه الله ونسميه الاله ، ليس شديد الاختلاف . وكان رد المفتى على ذلك يحمل تميزاً عده سبنسر جديدا . فقد قال عبده ان الله موجود لا شخص . وسر سبنسر لهذا ، ولكنه قال ان هذا التمييز مازال صعبا على الادراك ، ثم أضاف : « من الواضح على أى حال ، أنكم لا أدريون من نوع اللاأدرية فى أوربا [١] ولم يكن أمامنا متسع من الوقت للمضى فى هذه السلسلة من الأفكار ، لأن سبنسر لم يكن مسموحا له بالكلام فى كل مرة أكثر من بضع دقائق . ولكنى رحت استجوب المفتى حول هذه النقطة ونحن فى طريقنا بعد ذلك الى المحطة

قلت : هل تعتقد أن الله له وعى ، وأنه يعرف أنى موجود وأنك موجود ؟ أوليست هذه المعرفة دليلا على أنه شخص ؟

قال : نعم . هو يعرف .

قلت : اذا كان يعرف فهل يعرف انك صالح وأنى طالح ؟ ووافق عبده على ذلك .

قلت : وهل هو يرضى عنك وعنى ؟

قال : قد يرضى وقد لا يرضى .

قلت : يرضى اليوم لأن أعمالك صالحة ولا يرضى غدا لأن أعمالك أصبحت طالحة ؟ أليس هذا التغير من الرضا الى عدم الرضا أمرا يميز الشخص ؟ كيف اذن لا يكون شخصا ؟

قال : إن الله عليم بكل شىء فى كل زمان . ولا يوجد عنده اليوم

---

(١) اللاادرية : مذهب فلسفى أوربى يقوم على معرفة الله عن طريق الحواس ولايعتد بما يخرج عن نطاقها .

والغد . ومن ثمة لا يوجد عنده تغير وتبدل . ووعيه بكل شيء أزلى غير متغير . وهذا ما أسميه الموجود لا الشخصى

قلت : والمادة ؟ أليست المادة أزلية أيضا أم هى من خلق الله ؟ وهل اذا كان قد خلقها أفلا يعنى هذا أنها تتغير ؟

قال : المادة أيضا أزلية كما أن الله أزلى .

وهنا يتضح أساس تفكير عبده وقد اتفقنا على أن أفكارنا واحدة من هذه الناحية ... ثم ذهبنا الى لندن حيث لحق بنا على العشاء فى تشابلُ ستريت (بيت بلنت) الأستاذ براون وكوكرل . ومن المقرر أن يسافر عبده غدا الى (مدينة) أوكسفورد ، ويوم الاربعاء الى (مدينة) كيمبردج . وقد كان الجو بديعا طوال فترة زيارتهما (عبده وأخوه) واقامتهما فى نيوبيلدنجز .

(لقد روى محمد رشيد رضا خبر زيارة استاذه محمد عبده لسبنسر [1] الذى مات بعد خمسة أشهر ، وذكر أن عبده ترجم لسبنسر كتابه « التربية » أثناء تعلمه الفرنسية لأجل التمرن على الترجمة ، وأنه عرض ماترجمه على قاسم أمين الذى استحسن الترجمة [2] وكان قاسم يجيد الفرنسية بحكم تعليمه وثقافته .

غير أن الحوار الذى أجراه بلنت مع عبده حول الألوهية يبدو فى الحقيقة مقتضبا وغير واضح . ويبدو أيضا أن سبب ذلك يرجع الى أن بلنت كتبه من ذاكرته ـ فى الغالب ـ وأجمله . ومع ذلك لم ير بلنت صديقه بعد مغادرته لندن الى أوكسفورد وكيمبردج . وانتظر حتى عاد الى مصر فى ١٢ نوفمبر . وجاءه عبده ليلة وصوله الى القاهرة فاتصل بينهما حبل الحديث عن رحلة عبده الى انجلترا ، وهى رحلة لم تستغرق طويلا على أى حال)

---

(١) راجع : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ط ١ ، ص ص ٨٦٦ ـ ٦٥٩

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣٤

١٢ نوفمبر

فى ذلك المساء نفسه جاءنا الشيخ محمد عبده ، وروى لنا القصة الكاملة لمغامراته بعد أن غادر نيوبيلدنجز . ففى أوكسفورد وجد عددا من المخطوطات العربية التى لا يعرفها أحد فى الأزهر الا بالاسم . ومن بينها مراسلات بين فيلسوف عربى يدعى El Sebain (أو السباين ، والاسم مجهول فى الحقيقة على الأقل كما كتبه بلنت) وفردريك الأكبر (ملك بروسيا فى القرن الثامن عشر ، وربما يكون المقصود فردريك آخر فهناك ثلاثة ملوك أوربيين بهذا الاسم) وينوى عبده تكليف من ينسخ عددا من هذه المخطوطات بتمويل من وزارة الأوقاف . وقد ذهب من انجلترا الى سويسرا ، ومنها الى الجزائر وتونس . ورسم صورة محزنة للأحوال فى شمال أفريقيا الفرنسى اذا قورنت بما سماه معاناة أهالى مصر تحت سيطرة الانجليز ، وهى صورة أشبه بمقارنة الظلام بالنور . ففى الجزائر يوجه الحكم كله من أجل مصالح المستعمرين الأوربيين على حساب الأهالى . وهؤلاء محرومون تقريبا من أى حماية شرعية ولا يتمتعون بأى حرية على الاطلاق . فلا توجد هناك حرية صحافة ولا حرية رأى ، والتجسس أسوأ مما فى القسطنطنية ، والأحوال فى الجزائر ليست أفضل من الأحوال فى تونس . وقد اقترح عليه البعض فى تونس أن يطلب مقابلة الباى ، ولكن قنصل النمسا العام أبلغه أنه لابد أن يطلب اذنا أولا من المقيم الفرنسى الذى سيبعث رجلا فرنسيا لحضور المقابلة . وقال له المسلمون فى تونس : « إن صحفكم في مصر تشكو من تعاسة حظها فى ظل الانجليز ، ولكننا لا نطلب من الله الا أن يهبنا خمس سنوات من نظامكم على سبيل الراحة من جحيم النظام عندنا »

ذكر لى المفتى هذه التفصيلات لأننى قرأت فى صحيفة

« الفيجارو » (الفرنسية) أنه عبر لها عن رضاه التام عن أحوال اخوانه المسلمين فى ظل الحكم الفرنسى . ولكن مارواه لنا يتفق مع كل ماسمعته من جهات أخرى عن تونس ، وما أذكره عن الجزائر فى زيارتى لها سنة ١٨٧٣ .

(يستطرد بلنت بعد ذلك مباشرة الى المقارنة بين الاحتلال الانجليزى والاحتلال الفرنسي فى تعاملهما مع الاهالى . ويجد أن الانجليز فى مصر لم يحولوا البلاد الى مستعمرة من الناحية العملية ، وأن الادارة الانجليزية في مصر مدنية تقريبا تخضع للنقد فى ضحف انجلترا وبرلمانها على العكس تماما مما يحدث فى شمال أفريقيا تحت الاحتلال الفرنسى . ثم يعود الى محمد عبده :)

وأخيرا روى لنا المفتى آخر تصرفات الخديو . فهو الآن قد انصرف كلية الى جمع المال والمضاربات واتفق مع كاسل صديق الملك (الانجليزى) على اقراضه نصف مليون استرلينى لاستثمارها بدون فائدة فى مشروعات مختلفة ، وهو يخطط لمشروع مبان فى الجيزة يجرى التفاوض على استبدال أرض له مع وزارة الأوقاف بحيث يستفيد الخديو من عملية الاستبدال كلها . ومع ذلك فعبده يعترض ـ بصفته المفتى ـ على هذه العمليات ولن يسمح بأى احتيال على المال العام . وقد قابل الخديو مؤخرا ، وتظاهر الأخير امامه بالود ، ولكن محمد عبده يعرف أنه يدبر الدسائس لخلعه من منصب المفتى . والخديو لن يتسامح مع أى شخص لا يعمل له حسابا .

٢٣ نوفمبر

أرسلت أمس الطبعة الفرنسية من كتابنا « رحلة الى نجد » (ألفه مع زوجته) الى محمد عبده حتى يجد مايسليه فى شهر رمضان ، ثم جاءنى هو نفسه بعدها . ولما تطرق الحديث الى

مدحت باشا (والى سوريا السابق) الذى قدمت قصته من قبل ، قال لى انه لم يعجب به على الاطلاق بالرغم من عطفه على قضية الدستور فى القسطنطينية التى تولى مدحت بطولتها . وأضاف أنه كان رجلا مندفعا لا يعرف الحذر ، ولا سيما مع كؤوسه ، لأنه اعتاد الشراب ، وكان هذا سر سقوطه . وعندما كان واليا فى دمشق حضر ذات يوم مأدبة عشاء بمدينة طرابلس (اللبنانية) وألقى خطابا وصف فيه نفسه بأنه محطم ملكين ، مشيرا بذلك الى السلطان عبد العزيز والسلطان مراد . ونقل الخبر الى السلطان فكان سببا فى تحقير مدحت . أما من ناحية كونه مصلحا فقد كان ضحلا ومتأوربا بأسوأ معنى . ومع ذلك كان سقوطه سوء حظ حقيقيا وكانت نهايته مأساة حقيقية .

وقد قابل محمد عبده الخديو مرة أخرى وروى له الأخير القصة الكاملة لإخلافه موعده معنا فى كرابيت (بيت بلنت الريفى الآخر) فى الصيف . وكان السبب هو نفسه ماتوقعته . فحين اقترحت الزيارة فى البداية لم يقم أى اعتراض من جانب الانجليز الذين أوكل اليهم رعاية الخديو اثناء اقامته فى انجلترا ، ولكن حدث فى صباح الأحد ذاته الذى استعد فيه لبدء التحرك نحو كرابيت أن جاءه كاسل الذى كان مضيفه باسم الملك فى لندن فحدثه عن زيارتى ، وقال انها تسىء الى الملك وستفسر عند البلاط بمعنى أنه لم يرض عن استقبال الملك له . وقال له كاسل بالحرف الواحد : « لست أقول انه يجب ألا تذهب ، ولكنك اذا فعلت فسوف يفسر ذهابك بهذا المعنى » وقد بعث الخديو بهذا التفسير كرسالة الىّ عن طريق المفتى ، ولكن بغير غرض النشر . وهو يرجونى أن أذهب لمقابلته كالمعتاد ، ولكنى لن أفعل . وقد أبلغت عبده بأن ينقل اليه أنه مادام الملك قد أمره بألاّ يرانى ، ومادام هو قد اطاع فأنا ، بصفتى من رعايا الملك ، مازلت أكثر امتثالا للطاعة .

٢ ديسمبر

جاء المفتى اليوم وروى قصة مايدور فى الدوائر العليا فى مسألة الاصلاح القضائى . وقد قابل أمس كرومر الذى طلبه لمناقشة المشروعات المختلفة . وسأله كرومر عن رأيه فى خطة ترشيح القضاة ، فقال المفتى إن قيمة هذه الخطة تتوقف على ما اذا كان القضاة ستعينهم الحكومة أم محكمة الاستئناف . فاذا كانت الأخيرة فسوف يتم اختيار رجال أكفاء واذا كانت الأولى فسوف تنقلب الحال . ثم استدعى ماكلورث فلما حضر تلقى فى وجود المفتى محاضرة من كرومر عن ضرورة استشارة أرقى رأى عند الأهالى ، ولا سيما رأى المفتى . وهو (المفتى) راض الآن لأنهم سيتخذون مشروعا معقولا . كما شكا من السلطة الاضافية التى وضعت فى أيدى الشرطة بحالتها الفاسدة الراهنة . ويقول إن الخديو غاضب منه جدا بسبب اصراره على أن يسدد (الخديو) مبلغ العشرين الف جنيه كاملا لقاء صفقته مع الأوقاف ، وانه يبذل كل مابوسعه لاقصائه عن منصب المفتى . ومع ذلك فعبده راسخ فى مركزه الآن بحيث لا يقيم أهمية كبيرة على مايحوكه الخديو ضده ، ويبدو حقيقة كما لو كان نفوذه قد اصبح فى النهاية على ماكان يجب أن يكون عليه من البداية ، أى أن يكون أعلى شخص فى مصر . وروحه المعنوية مرتفعة جدا . وقد هنأته على قرب تعيينه رئيسا للوزراء . فكرومر يسند المفتى الآن . والخديو فى غاية الغباء لأنه يسمح للشرور الحقيقية بالمرور دون اعتراض ، ولا يتدخل الا فى التوافه .

١١ ديسمبر

حديث أكثر طرافة مع عبده . مازال الخديو غاضبا جدا عليه حول مبلغ العشرين الف جنيه ثمن قطعة الارض التابعة للأوقاف ، وهو يحاول الانتقام من المفتى باثارة معركة جديدة على أسس دينية تتصل ببنك الادخار المقترح انشاؤه . وقد أساءت فكرة هذا

البنك (صندوق التوفير) للمسلمين التقليديين ، لأنه يسمح للمودعين بالحصول على فائدة على أموالهم ، الامر الذى تحرمه شريعتهم. أما عبده فقد أصدر ، بصفته مفتيا ، فتوى حول الموضوع . وأوصى فيها بتغيير صيغة المرسوم بانشاء البنك ، ولكن الخديو اتخذ ضده خطا دينيا متشددا وأدان المشروع بأكمله ، مع أنه يودع أمواله بغير تدقيق نظير فائدة فى كل مكان ولا يخفى ذلك . غير أن كرومر يؤيد عبده . ولهذا فلا خطر فعليا عليه من المكيدة . وفى هذا كله وكثير غيره يتصرف الخديو بطريقة غير معقولة فيسمح للشرور الحقيقية بالمرور بغير احتجاج ولا يتدخل الا فى التوافه .

٢٥ ديسمبر

جاء المفتى بعد الظهر بصحبة (أحمد) المنشاوى باشا ، وهو نفسه الذى لعب دورا مشرفا وقت ضرب الاسكندرية فأنقذ حياة كثيرين من المسيحيين فى طنطا ، بالقرب من قريته . وقد منحته الحكومة الانجليزية وساما بعد الحرب تقديرا لانسانيته ، ولكن كرومر اضطهده منذ ذلك الحين بدعوى أنه من أنصار الخديو . وهو رجل ثرى جدا ، تبرع مؤخرا بمبلغ ١٤ الف جنيه للمفتى لانفاقه على مختلف الأغراض الاسلامية . ومازال قلقا من ناحية الخديو الذى قام بالضغط على عدد من شيوخ الأزهر حتى يكتبوا اليه ملتمسا بعزل المفتى على أساس عدم التقى ، تماما مثلما فعل محمد على مع الشيخ السادات زمن الجبرتى (المؤرخ الذى طالع بلنت كتابه وأنهاه قبل يومين) ويقول لى (عبده) انه برغم كل مامر به فى حياته لم يفقد الا صديقين ، وانه جعل مبدأه دائما العفو والمغفرة .

١٧ يناير (الأحد) ١٩٠٤

عاد المفتى من الاسكندرية حيث ذهب لمقابلة الخديو الذى استقبله ـ كعادته ـ بالابتسامات والنكات ، مع أنه كان يبذل كل مابوسعه للوصول الى موافقة كرومر على عزله . وقد حمل له الخديو ضغنا جديدا بسبب اصداره فتاوى لبعض المسلمين من الترنسفال (جنوب افريقيا) ردا على ثلاثة أسئلة وجهوها اليه :

١ ـ هل يجوز أن يأكل المسلم فى بلد أجنبى (غير مسلم) لحما غير مذبوح على الطريقة الشرعية ؟

٢ ـ هل يجوز أن يرتدى المسلم القبعة فى بلد أجنبى ؟

٣ ـ هل يجوز للشافعى أن يصلى خلف الحنفى بدون تسمية ؟ [1]

وعلى هذه الاسئلة الثلاثة جميعا أجاب محمد عبده بالايجاب . ولكن الخديو الذى يأكل هو نفسه ويرتدى قبعة ولا يصلى حين يسافر الى أوربا أوعز بأن يعد هذا القرار مروقا من الدين . ومع ذلك فكرومر يؤيد عبده ، وهو وضع غريب .

٢٢ يناير

كان المفتى عندنا اليوم على غداء يوم الجمعة المعتاد فى الحديقة تحت « تعريشة » الخيزران . انه يعانى قلقا جديدا بسبب وفاة أحد شيوخ الأزهر التى ستؤدى الى ازمة أخرى مع الخديو فيما يتعلق بمن يخلفه . ومن حسن الحظ أن سموه ، أو « فتانا » كما يسميه المفتى ، سيشرع فى رحلة باتجاه حدود طرابلس (ليبيا) تريح منه الجميع قليلا . ويرجو المفتى أن يكون هو نفسه فى الخرطوم عند ذاك . وقد وعدنى بأن يبحث هناك حقيقة الشعور

---

(١) راجع النصر العربى للفتوى عند رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، المصدر نفسه ، ص ٦٧٦

فى السودان تجاه النظام الجديد (بعد اعادة فتح السودان على ايدى الانجليز واحتلالهم له)

تحدثنا طويلا فى حديث مشوق حول أيام المماليك فى مصر وحول أحوال اليهود فى الجزيرة العربية قبل ظهور محمد (ﷺ) وغير ذلك من أمور تاريخ الشرق التى يعلمها جيدا . ولست أعرف صحبة سارة ، أو صحبة تتحسن ، مثل صحبته ، وهى كل مانملك هنا لأننا لا نرى أحدا من الأوربيين . فنحن فى حالة عزلة الآن مع المسئولين الانجليز ، ولكن هذا لا يهم . وطالما أن مصر لم تضم للتاج البريطانى فسوف أمضى فى معارضتى .

تحدث (عبده) أيضا حول ميول الخديو التجارية التى يمارسها دون اعتبار لوضعه السياسى . فهو يستأجر ويؤجر « المعديات » على الترع . ويحاول احتكار الصيد فى مختلف الأماكن على حساب الفقراء . وقد لامه كرومر على ذلك . وقال له أنه يجب أن يختار بين كونه خديويا وكونه تاجرا ، وكرومر على حق فى هذا . ولكن جميع أفراد أسرة محمد على كانوا تجار مهرة . أما عباس كما يقول عبده ـ فلا يهمه شىء سوى جمع المال .

٤ فبراير

يقول محمد عبده إن جورست (السير إلدون جورست المراقب المالى والمندوب السامى فيما بعد) كان يساعد الخديو فى الفترة الأخيرة فى مضاربته المالية ، وان هناك آقاويل بأنه سيترك الخدمة فى مصر .

النهاية : خسارة عامة للعالم الاسلامي

يستمر بلنت فى تسجيل يومياته على هذا النحو العفوى وتستمر علاقته بمحمد عبده فى توهجها ونضجها . يقول بلنت :

١٤ فبراير ١٩٠٤

تغدى المفتى معنا . وتحدثنا عن تاريخ مصر . وقال ان النظام المملوكى الشركسى فى آخر مراحله كان فاسد الاساس منحل الأخلاق . ولكن هذه لم تكن حال المماليك الأوائل الذين كانوا ـ أساسا ـ من العبيد الذين جاء بهم صلاح الدين (الأيوبى) الى مصر . أما المماليك الأواخر فلم يتفوق عليهم أحد فى جرائمهم بما فى ذلك العثمانيون والفرنسيون أيضا . فقد كان يحلو لهم أن يختبروا مضاء سيوفهم فى محلات السلاح على المارة فيقطعون رؤوسهم أو يشطرونهم نصفين عند الخصر .

كان محمد عبده ، وهو يروى هذه الحكايات ، يجلس على الأريكة وقد استقرت عمامته على رأسه ، وبدأ كتركى رهيب يؤشر أثناء حديثه بسيف وهمى . كما روى حكمة سديدة للسيد جمال الدين يقول فيها : « العدالة توجد حيث تلتقى القوى المتكافئة » ومعناها أن الاستبداد لا يتوقف الا اذا وقفت قوة المقاومة عند المحكوم فى وجه قوة الحاكم . وهذه اشارة الى سلبية المصريين فى ظل الباطل .

وثمة فضيحة جديدة فى القاهرة . فقد دعا الخديو محظيته المجرية الى حفل راقص بالقصر مما أشعر زوجات القناصل بالاساءة ففكرن فى اثارة القضية على الملأ ، ولكن كرومر هدأ خواطرهن .

٢٩ فبراير

صحبت كوكريل (صديقه الذى جاء من انجلترا لزيارته فى مصر) فى زيارة للمفتى الذى وجدناه فى الفراش مصابا بالأنفلونزا ، ولكنه حدثنا بحكمته المعتادة . ولما تطرق الحديث الى الاقتراح الذى قدمه (الشيخ) على يوسف (محرر صحيفة « المؤيد » الموالية للخديو) للجمعية الوطنية (البرلمان) وطالب فيه بانشاء حكومة برلمانية فى مصر اعترضت على كلمة « انشاء » على أساس أن مصر عرفت الحكومة البرلمانية قبل ٢٢ سنة ، ولكن عبده قال ان احياء الفكرة هنا اليوم مكيدة ، وأنه عارضها ـ دون جدوى ـ لأنها طرحت على التصويت ونالت أغلبية . وأعتقد أنه (عبده) كان على خطأ فى هذا ، لأن البرلمان ـ سواء جاء بالمكيدة أو بغيرها ـ هو خير فرصة فى مصر للتخلص من فرض الرأى الذى يمارسه الانجليز . وقد أعلن كرومر أن هذا الاقتراح ليس من اختصاص الجمعية (الوطنية) ويقول عبده إن جورست (خليفة كرومر) يعاون الخديو بالتأكيد فى مضارباته التجارية . وقد نشبت بينه وبين كرومر معركة حول هذا الموضوع . وليس من المتوقع أن يحتفظ (جورست) بوظيفته هنا كمستشار مالى . (لم يحتفظ جورست طويلا بوظيفته هذه على أى حال ، فقد سافر الى أوربا قبل شهر تقريبا بحجة اقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على الغاء « صندوق الدين » الذى أنشأته انجلترا وفرنسا فى مصر لمراقبة المالية المصرية فى أواخر عهد اسماعيل . ولكن الحكومة الفرنسية وافقت بعد بضعة أشهر

(١٩٠٤) على اطلاق يد انجلترا فى مصر مقابل اطلاق يد فرنسا فى المغرب . أما السبب المباشر لمغادرة جورست مصر فكان خلافه الشديد مع كرومر . وقد روى بلنت فى يومية ١٠ مارس ١٩٠٤ قصة هذا الخلاف أو ماسماه « المعركة » . وملخص القصة أن سيدة انجليزية صديقة لملك بريطانيا زارت مصر فى شتاء ١٩٠٣ فلم يعجبها طريقة الاستقبال الفاتر الذى لاقته من زوجة كرومر ، فى حين استقبلها جورست بالترحاب . وقيل أنها بدأت منذ تلك اللحظة فى تدبير مكيدة لكرومر بالاشتراك مع جورست وتشجيع من الملك الذى شكت اليه السيدة . ومن هنا نبتت فكرة خلع كرومر واحلال جورست محله . ثم تعقدت الأمور فى غير مصلحة كرومر حين احتد على الخديو وخيره ـ كما روى محمد عبده لبلنت ـ بين أن يكون خديو أو تاجرا . وأسرها الخديو فى نفسه حتى زار انجلترا فى صيف ١٩٠٣ وطلب عزل كرومر . ولكن المسئولين الانجليز فضلوا أن يعزلوه بطريقتهم الخاصة ، أى على مهل بعد أن تنضج الثمرة . فلما استمر الخلاف بين كرومر والخديو خير كرومر نفسه حكومته بين عزل الخديو أو قبول استقالته .هو شخصيا . وكان جورست عند ذاك قد قوى مركزه بعد عودته الى انجلترا واصبح وكيلا للخارجية مع وعد بتعيينه سفيرا . وتخلصت الحكومة الانجليزية من ابن كرومر ـ الذى اشيع أنه سيخلف أباه ـ بتعيينه فى طهران. وهكذا ضيق على كرومر حتى يتصرف تبعا للموقف . ومع ازدياد خلافه مع الخديو انتهى الى تقديم استقالته ـ ظنا منه فيما يبدو أن الاستقالة ستسوى ـ فقبلت الاستقالة على الفور ، وكان ذلك فى صيف ١٩٠٧ ، وعين جورست محله على الفور . ثم يكمل بلنت القصة :)

١٠ مارس

زرت المفتى فى المساء ورويت له القصة الكاملة لمعركة

جورست وكرومر : فأنا لا آخفى عليه شيئا ، وكذلك هو . ولذا نعرف كل شىء فيما بيننا . وقد علق على ما رويته بأنه يتفق مع كل ماسمعه ولاحظه هو نفسه خلال العام الماضى . فقد حاول الخديو أثناء وجوده فى لندن آن يفتح فى وزارة الخارجية موضوع تقاعد كرومر ولكنه لم يجد ترحيبا . وخلال هذا الشتاء حدث كرومر عبده عن نفاد صبره مع جورست . وهكذا كان عبده على آتم استعداد لما رويته له . فهو يعرف كل شىء عن الدسائس المالية التى شجع جورست الخديو عليها ، ومنها على سبيل المثال سماحه للخديو بشراء أرض مريوط الشاسعة من الحكومة بمبلغ زهيد جدا . كما ساعده بطرق آخرى على جمع المال على حساب الحكومة تقريبا .

وقد طرب (المفتى) كثيرا عندما سمع دور السيدة (الانجليزية) فى المكيدة . وقد سمع به من خلال صديق تصادف آن كان على ظهر الباخرة التى اقلت الخديو فى الصيف الماضى الى القسطنطينية . فقد راح سموه يزهو آمام زملائه المسافرين بأن شخصية انجليزية كبيرة قد وعدت بالتخلص من الشيخ محمد عبده لأجل خاطره . وقد ناقش عبده هذه الواقعة مع صديقه مصطفى باشا فهمى (رئيس الوزراء)

(كان بلنت قد رتب القيام برحلة الى الشام بعد آيام واقترح على صديقه محمد عبده مصاحبته ولكن الأخير اعتذر من عدم الذهاب قبل آيام من بدء الرحلة)

١٥ مارس

زارنا المفتى اليوم . وتحدث عن ذهابه معنا الى دمشق ، ولكنه رأى من الخير ألا يفعل ، وقال : « اذا سافرنا أنا وآنت الى دمشق فسوف يغضب السلطان ، وسيظن أننا جئناها لاعلان الخلافة العربية .

(وسافر بلنت مع زوجته ثم عادا فى ٢١ مارس)

٣ ابريل

عيد الفصح . تعشيت مع المفتى وناقشنا الشئون الاسلامية وروى لى حكاية مسلية عن حادثة وقعت له اثناء منفاه فى دمشق (يقصد بيروت) فقد كان بلندن فى ذلك الوقت (١٨٨٣) قس (انجليزى) يدعى اسحق تيلور اعتنق فكرة اقامة اتحاد بين الكنيسة الانجليزية - بعد اصلاحها - والسلطة الدينية الاسلامية على أساس عقيدتهما المشتركة فى التوحيد . وقد شجعه على ذلك ميرزا باقر الايرانى (سكرتير بلنت سابقا) الذى حمل الفكرة الى سوريا وروج لها الى حد ما . وحصل على عطف محمد عبده عليها . وكتب عبده رسالة الى تيلر وقعها بامضائه مع اثنين من كبار علماء دمشق . وسر تيلور بالطبع ، ونشر الرسالة فى الحال بصفتها تعبر عن الرأى العام لعلماء المسلمين فى دمشق ، ورتب عليها أن الاتحاد بين المسيحيين والمسلمين على وشك التحقق . وبلغ ذلك مسامع السلطان . ومع أن الرسالة المنشورة لم تحمل أى اسم لأحد من كتابها فقد تلقى السفير التركى فى لندن تلغرافا على الفور ، وأمر بالبحث عن أسماء الموقعين الخمسة . وقام تيلور دون ادراك للخطر باطلاع السفير على الأسماء فصدر أمر بنفى الخمسة جميعا من سوريا . ومع ذلك احتج عبده قبل مغادرته دمشق . واتيحت له فرصة مناقشة ماحدث مع السلطان ، ففهم أن سر انزعاج السلطان يرجع الى ظنه أن انجلترا اذا تحولت الى الاسلام فلابد أن يدخل العاهل الانجليزى الاسلام بناء على هذا ، وبذلك يصبح أقوى شخصية فى ديار الاسلام ، وتنتقل الخلافة على نحو طبيعى الى الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا فى ذلك الوقت) برغم أنف التعصب العثمانى للخلافة ذاتها .

١٠ ابريل

غادرنا الشيخ عبيد الى انجلترا . وقد ودعت محمد عبده أمس .
كان قد كتب رسالة الى تولستوى (الأديب والمصلح الروسى)
ترجمتها أن الى الانجليزية . (نشرها بلنت فى ملاحق هذا الجزء
الأخير من اليوميات) وصلت آخبار الاتفاق الانجليزى الفرنسى
(المسمى "الاتفاق الودى") على مراكش (المغرب) ومصر .
وكنت اتوقعه منذ زمن طويل . أما بالنسبة لمصر فالشروط أكثر
اجحافا ، لانها لم تمس الحالة السياسية . ولكنه سيكون يوما
تعيسا على مراكش . وأما هنا فسوف يندفع الناس الى التخمين .
وقد روى لى عبده تفاصيل مساحة الآلف فدان التى منحت امتيازا
لكاسل (صديق ملك بريطانيا وشريك الخديو ومقرضه المال)

(فى ٧ يونيو تاكد بلنت وهو فى لندن من آخبار خلافة جورست
لكرومر ، وكتب فى يومياته أنه أرسل الى محمد عبده خطابا حول
الموضوع وضمنه آخبارا عن احتمال تغيير النظام فى مصر بعد
تولى جورست . وفى ١١ نوفمبر عاد بلنت الى مصر ، ووصل داره
فى ٢٨ نوفمبر وكتب :)

٢٨ نوفمبر

روى لى عبده خلاصة لكل ماحدث خلال الصيف . وكانت
الحادثة الرئيسية هى مغامرة الشيخ على يوسف التى تورط فيها
الخديو . فالخديو ، منذ زيارته الأولى للندن وتعرفه الى مليكنا ، قد
مال الى حياة اللهو مع النساء السيئات السمعة ، وآحاط نفسه
برفاق السوء . ودخل فى هؤلاء الشيخ على يوسف الذى كانت
علاقته بالبلاط آدبية فى الآصل ، ولكنه اصبح سميرا وانضم الى
بطانة السوء ؛ ومع أنه لم يعد شابا فقد تصابى فى صحبة الخديو .
وكان الأخير يجل من النساء ابنة الشيخ السادات التى منعها أبوها
من الزواج بدافع الارتزاق من ورائها ، مع أنها الآن فى السابعة
والعشرين وكان مركزه كشيخ (نقيب) لاشراف المسلمين يتيح له

فرض هدايا غالية على طالبى يدها الذين لا يلبث أن يرفضهم بعد ذلك . ولكن الفتاة ثارت على تأخر الاذن لها بالزواج . وعن طريق الشيخ البكرى الذى تزوج شقيقتها الكبرى تعرف اليها الخديو ، ثم رشحها زوجة لعلى يوسف . فتقدم الأخير طالبا يدها بمساندة عباس ، ولكن الموضوع انتهى باللعبة القديمة التى تبدأ بالهدايا وتنتهى بتأجيل الزواج . وسئم على يوسف الموقف فدبر مع البكرى أن تهرب الفتاة معه ، وهروب الفتيات الآن أمر لم يسمع به أحد فى الاسلام ، فضلا عن أنه يحمل طابع السرقة ، مثله مثل سرقة ابنة الرجال دون دفع المهر المعتاد .

وقد شاع أمر الفضيحة التى تسبب فيها على يوسف ، واتسع نطاقها فى كل مكان . ولم يخفف منها أن اللورد كرومر قرر فى النهاية وضع حد للنزاع فنصح الفتاة بالعودة الى أبويها . ويقول محمد عبده ان وضع الخديو فى القسطنطينية وضع من استخدمه السلطان للتجسس لحسابه على مايجرى فى مصر . ولذلك فقد شعبيته .

١٠ يناير ١٩٠٥

جلست أمس لمدة ساعة فى الحديقة مع المفتى . وكان بصحبته رجل يدعى محمد بك طلعت حرب ، فى غاية الذكاء يقوم بكتابة تاريخ العرب ابتداء من محمد (ﷺ) الى اليوم ... حاول الخديو فى الفترة الأخيرة أن يحسن علاقته بمحمد عبده .

٢١ يناير

ذهب محمد عبده الى السودان للنظر فى مختلف الأمور المتعلقة بمصالح المسلمين .

١٩ فبراير

عاد محمد عبده من الخرطوم سعيدا بما رآه هناك . ويقول ان الحكم يدار بطريقة أفضل مما فى مصر ، وإن الناس راضون ، ولاسيما فيما يتعلق بمسألة تجارة الرقيق ، وان التعليم معقول فى الكلية (كلية جوردون) ، وان قانون العقوبات السودانى أبسط وأفضل من نظيره المصرى . ويرى أن حكم ونجت (الجنرال السير ريجنالد ونجت حاكم السودان) يتميز بالاعتدال . وهناك مشاعر طيبة بين الانجليز والسودانيين .

(كان بلنت قد مرض بالحمى فى ديسمبر ١٩٠٤ ، واشتدت عليه فترة طويلة . ولم يجد مفرا فى النهاية من العودة الى انجلترا)

١٧ مارس

غادرت الشيخ عبيد فى الصباح . ويبدو لى أن هذه المغادرة ستكون الى الأبد . إن المكان عزيز على نفسى جدا بشمسه الساطعة دائما وحيواناته المفترسة وطيوره . ياويلى ! من سيرعى هذا كله حين أذهب ؟ لقد جاء عبده لتوديعى . بمحطة القاهرة . وظللنا نتحدث حتى آخر دقيقة ، وكل منا يودع صاحبه وداعا حزينا [وحين افترقنا لم يخطر لى على الاطلاق أنى سأراه مرة أخرى . ولكنى لم أمت ، وانما مات هو خلال السنة]

(لقد جاء بلنت الى لندن للعلاج من الحمى وآلامها المبرحة . ومات صديقه وهو يكاد يكون غائبا عن وعيه بسبب الحمى المتجددة . بل انه انقطع عن تسجيل يومياته حتى ٢٨ يوليو ، أى بعد أيام من وفاة صاحبه فى الاسكندرية بعد مرض لم يمهله طويلا . وحين وصل خبر الوفاة الى صاحبه بلنت نهض الى يومياته وكتب :)

٢٨ يوليو

ان الخطب العظيم الذى يعلو على سواه هو أن محمد عبده مات ! انها خسارة شخصية فظيعة بالنسبة لى ، وخسارة عامة لا يمكن حصرها البتة بالنسبة للعالم الاسلامى . ولا نستطيع أن نغالب الخوف من أن يكون فى الامر شىء . فالوفاة كانت مفاجئة للغاية ، والمفتى كان له أعداء سياسيون كثيرون .

(لبث بلنت ، بعد ذلك ، يسأل كل من لاقاه فى انجلترا من المصريين عن سر وفاة صديقه ، وماذا كان قد أهمل علاجه أو دس له السم . وحين انتهى ذلك العام كتب ينعى صديقه ويشكو الزمن مرة أخرى :)

٣١ ديسمبر ١٩٠٥

حين انظر الى العام الماضى أراه يتجسد لى عاما فظيعا . ولكنه جاءنى بكثير من ألوان التعزية . فخلال الاسابيع الستة الاخيرة قابلت فى لندن عددا من الاصدقاء أكبر من عدد الذين قابلتهم فى السنوات الست الماضية . لقد توقفت عن ازعاج نفسى بالشئون العامة . ولن أعود مرة أخرى الى مصر ، بعد أن مات المفتى ، بل لا أظن أننى سأعبر القنال (الانجليزى)

(ثم ابدى بلنت رغبته فى قضاء ماتبقى من عمره ـ بعد شفائه ـ فى انجلترا بين زوجته واصدقائه وابنته الوحيدة وحفيديه . ولم يعد الى مصر بعدها ولم يعبر القنال الانجليزى أيضا . ولكنه ظل على اتصال بأحوال مصر من خلال زعماء الحركة الوطنية وأنصارها الذين كانوا يترددون على لندن ، ويزورنه فى بيته ، مثل مصطفى كامل ومحمد فريد وطلاب الجامعات الانجليزية الوطنيين مثل عبد السلام جمعة وأحمد عبد الغفار ، وسواهما ممن كانوا يدرسون فى

لندن وأوكسفورد . ومالبث أن باع بيته وحديقته فى مصر (الشيخ عبيد) وعاش حياة هادئة حتى توفى عن ٨٢ عاما سنة ١٩٢٢)

★ ★ ★

ونستطيع - بعد هذا كله - آن نستخلص من كتابات بلنت ويومياته صورة لما كان عليه محمد عبده فى شبابه وكهولته وشيخوخته . فهو فى مرحلة الثورة العرابية مثقف وطنى مستنير حريص على الاصلاح والدستور والحكم النيابى . وهو فى مرحلة المنفى بالشام وأوربا مجاهد وطنى بالكلمة والموقف معاد للاحتلال الانجليزى والاستبداد المحلى . وهو فى مرحلة العودة رجل واقعى معتدل الفكر والرآى لم يفقد حماسه للحكم النيابى بالرغم من فكرته عن « المستبد العادل » التى كانت تحوم فى ذهنه وكتاباته من حين لآخر .

ويلى ذلك بعد شخصى للصورة التى كان عليها ، ويتمثل هذا البعد فى وفائه الواضح لأصدقائه وقدرته على مغفرة أخطائهن ، فهو وفى لمصطفى رياض رئيس الوزراء حتى مع استبداده ، يلتمس له الاعذار ويدافع عنه ، بالرغم من نقده له آحيانا . ولكن هذه المرحلة فى حياته ربما أبرزت بعدا آخر شخصيا فى صورته ويتمثل فى ميله الى اتقاء الشرور وتجنب العواصف واحتماله دسائس الخديو .

ومن الواضح أن هذه الكتابات واليوميات قد ألقت الكثير من الأضواء على هذه الجوانب الموضوعية والشخصية فى صورة محمد عبده ، كما القت أضواء كثيرة آيضا على عصره ورجاله ، مثل عرابى وعباس وكرومر واسماعيل صديق ومدحت باشا التركى زعيم حركة الدستوريين وطلعت حرب وحافظ ابراهيم ومحمد رشيد رضا وعلى يوسف ، وغيرهم من الاسماء فى ذلك العصر . وفيها بعد هذا كله آضواه على تاريخنا الحديث وتاريخ محمد عبده نفسه الذى لم يكتب حتى الآن بشكل علمى موثق .

ملاحــق

(الملاحق التالية تشكل بعض المراسلات التى جرت بين بلنت والافغانى ومحمد عبده ، وقد نقلناها عن كتاب « جوردون فى الخرطوم » لبلنت)

من محمد عبده الى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للنص العربى)

(القاهرة) فى ٢٥ ابريل ١٨٨٢

... أما ما يتعلق بترقية الضباط التى تضخمها الصحف الأوربية كثيرا فاسمحوا لى أن أجلو الحقائق .

أولا - لم تتم الترقيات بارادة عرابى ورضاه ، ولا جاءت على سبيل الرشوة لكسب عواطف الضباط نحو عرابى ، وانما تمت بمقتضى القانون العسكرى الجديد الذى يقضى بإحالة الضباط الى التقاعد لقاء معاش عند بلوغهم سنا معينة أو فى حالة مرضهم أو انعدام كفاءتهم أو عجزهم . وقد بدأ تطبيق هذا القانون العسكرى فى عهد شريف باشا . وبناء عليه ضمت قائمة الاستيداع ٥٥٨ ضابطا . وتم إرسال ٩٦ ضابطا منذ عام إلى حدود الحبشة وزيلع وغيرها فى حين تم نقل ١٠٠ ضابط من الخدمة الى الوظائف المدنية . وبذا بلغ عدد المحالين الى التقاعد ٧٥٤ ضابطا . وهكذا كان من الطبيعى اجراء الترقيات لشغل الوظائف الشاغرة . ومازالت هناك خمسون وظيفة شاغرة مخصصة لطلاب المدرسة الحربية .

ولم يفرض السلطان رتبة الباشا على عرابى ، وانما فرضها عليه الخديو الذى أصر على أن يكون جميع وزرائه من الحائزين على الرتبة .

أريد الآن أن أزيل من الأذهان الفكرة الخاطئة التى تزعم أن عرابى ، أو الحزب العسكرى ، أو الحزب الوطنى ، أدوات فى أيدى

الاتراك . فان كل مصرى ، عالما أو فلاحا ، حرفيا أو تاجرا ، جنديا أو مدنيا ، سياسيا أو غير سياسى ، انما يكره الأتراك ويمقت ذكراهم غير العطرة . ولا يوجد مصرى يخطر له أن ينزل بأرضه تركى دون أن يشعر بنبض يدفعه نحو سيفه ليخرج به الدخيل .

إن الأتراك مستبدون ، خلفوا بمصر كوارث مازالت تدمى قلوبنا . ونحن لا نستطيع أن نتمنى عودتهم أو نتمنى أن تكون لنا بهم صلة . وما استقر الأتراك بمصر الا عن طريق الفرمانات . ولابد من ايقافهم عند هذا الحد فلا يتخطوه . ولكن اذا علمنا أنهم يحاولون تخطى حدودهم فلن نواجههم بالرفض التام . وقد مر بنا شيء من ذلك وأدى الى أن نستعد له . وسوف نستغل أى محاولة من هذا النوع فى الحصول على استقلالنا التام . وان سياسيينا الأذكياء ليرقبون الآن كل حركة تقوم بها السياسة التركية فى هذا البلد حتى لا تتجاوز حدودها . ولا أنكر أن فى مصر أتراكا وشراكسة يناصرون قضية الباب العالى ، ولكنهم قلة قليلة لا تقاس بأولئك الذين يحبون بلادهم .

وأما مايتعلق بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى فهى لا تشكل فى الحقيقة خطرا جسيما . فالخديو السابق اسماعيل ـ اكبر عدو شهدته مصر يغار من سعادتها ـ لم يكف منذ وقت طويل عن تدبير المؤامرة للاطاحة بحكومتنا الحالية ، معتقدا أنه يستطيع بعمله هذا العودة الى مصر . ولكن الله القادر على كل شيء بدد أماله أدراج الرياح فكل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر . ومع ذلك أرسل الفرعون ، لتحقيق أمله ، واحدا من اتباعه ، هو راتب باشا الذى أبعد عن البلاد ثم نجح فى دخولها بوسائل خسيسة فى عهد حكومة شريف باشا ، وانضم الى أخيه محمود أفندى طلعت البكباشى ، ثم ضم الى خدمته بعد ذلك يوسف بك نجاتى ومحمود بك فؤاد ابن اخت خسرو باشا وعثمان باشا رفقى (كلهم شراكسة) وعمل هؤلاء على تجنيد الناس لخطتهم التى استهدفت القضاء على وزرائنا الحاليين ، وقتل كبار

الضباط ابتداء من عرابى باشا . ونجحت جهودكم فى ضم نحو اربعين من صغار الضباط قاموا بالقسم على تحالفهم . ولكنهم أجلوا تنفيذ الخطة مبدئيا انتظاراً لمسوغ . ثم وجدوا هذا المسوغ ممثلا فى سخط تسعة من الضباط الشراكسة عارضوا صدور الأمر اليهم بالخدمة فى السودان . واصبح حزب راتب باشا مدركا لما كان يدور بينهم فاستغل الموقف كى يوحى للشراكسة التسعة بأن يرفضوا الذهاب الا بشرط الترقية .

وقد كان لدى الوزارة ، منذ فترة طويلة ، شك فى سوء التدبير الدائر . فمنذ فترة فى بداية عودة راتب الى البلاد طلب محمود سامى - رئيس الوزراء الحالى ووزير الحربية وقتها - من شريف باشا - فى حضور الخديو - أن يبعد راتب . وكان السبب فى ذلك انه شك فى أمر راتب وتخليه عن الخديو السابق فى نابولى على هذا النحو المفاجىء . ولكن شريف رفض الطلب مع أن محمود سامى حذره بأنه سيكون مسئولا عما يمكن أن يقع يوما ما من جراء بقاء راتب . وسر ذلك الرفض أن راتب صهر شريف ، وربما كان - كما يعتقد الناس - شريكه فى التخطيط لعودة اسماعيل .

لقد حدث على أى حال أن دعا حزب راتب أحد الضباط الشراكسة ، ويدعى راشد افندى انور ، الى الانضمام اليهم فرفض الضابط أن يكون له شأن بخطتهم ، ثم تركهم وجاء على الفور الى عرابى وافضى اليه بالخطة . ومن ثمة صدر الأمر بالقبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة امام محكمة عسكرية .

ولم تؤد الحادثة الى اثارة كبيرة بين الناس . فالجميع يعرفون أن حياة عرابى ، وحياة الآخرين ، معرضة للأخطار كل يوم . وليس من الممكن لأى مخلوق ، مهما بلغ شأنه ، أن يجد التأييد من الجميع . ولكننا سنضحك لو قيل على الملأ أن انجلترا على وشك الفوضى لأن مجنونا ، عسكريا أو مدنيا ، حاول إطلاق الرصاص على مليكتكم .

إن مجموع الشراكسة فى الجيش كله ٨١ شخصا . ولا يمكن

لعاقل أن يتصور أن عددا صغيرا كهذا قادر على قلب الحكومة .

أما مسألة تجارة الزقيق فان الوزارة الراهنة تبذل جهدها للقضاء على الرق المحلى . وليس فى الدين الاسلامى مايتعارض مع هذا على الاطلاق . بل ان المسلمين طبقا للسنة المحمدية محرم عليهم أن يتملكوا العبيد الا اذا وقعوا اسرى حرب مع الكفار . وهؤلاء فى الحقيقة اما ان يكونوا اسرى او سجناء حرب مشروعة ، أو يمتون للكفار الذين يعادون أمراء المسلمين ولا تحميهم عهود ولا مواثيق . ولكن لا يباح للمسلم أن يسترق غيره . وهكذا فان الدين الاسلامى لا يعارض القضاء على الرق كما هو كائن فى العصر الحديث فحسب ، وانما يدين استمراره اصلا . واما اولئك السادة العلماء فى انجلترا وغيرها ممن يؤمنون بغير هذا الرأى فيجب أن يأتوا الينا وان يعلمونا ، نحن شيوخ الأزهر ، اصول ديننا ، وسيكون هذا مشهدا بأخذ الألباب فعند ذاك سيخرس العالم الاسلامى كله عندما يعرف أن مسيحيا تولى عنه تدريس اصول الدين الاسلامى وتفسير القرآن لعلماء اكبر جامعة اسلامية فى العالم واساتذتها وفقهائها .

وبعد أيام قلائل سوف يصدر شيخ الاسلام فتوى تثبت أن القضاء على الرق مطابق لروح القرآن والتقاليد الاسلامية والسنة المحمدية .

وستحاول الحكومة المصرية أن تزيل كل عقبة فى الطريق . ولن يهدأ لها بال الا بعد زوال الرق من الأراضى المصرية .

محمد عبده

---

(١) جاءت هذه الرسالة فى الجزء الأول من الأعمال الكاملة لمحمد عبده التى حققها الدكتور محمد عمارة (المؤسسة المصرية الحديثة ، بيروت ١٩٧٢) ولكنها جاءت بصورة غير دقيقة . راجع ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

من محمد عبده الى الليدى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

بيروت فى ١٣ رمضان ١٣٠٠ (ذكر بلنت أنه تسلم الخطاب فى ٥ أغسطس ١٨٨٣) الى السيدة آن بلنت ، متعنا الله بمحياها ، الخ .

أما بعد ، فمن بين أولئك الذين لديهم معلومات عن الشغب فى الاسكندرية يوجد مصطفى عبد الرحيم الذى حضر الشغب ومنع تفاقمه بالجنود النظاميين التابعين لسليمان سامى (عليه رحمة الله) وهو مستعد للادلاء بشهادته اذا طلب منه ذلك . وقد أبلغنى بهذا الليلة .

وأما أولئك الذين لديهم معلومات كاملة عن مسلك الخديو توفيق ومساعيه ، هو وأعوانه ، لتكدير الهدوء والسكينة فى مصر ، واثارة المسلمين على المسيحيين والمسيحيين على المسلمين ، فيوجد منهم هنا احمد بك المنشاوى ، أحد أعيان مصر . وهو رجل ثرى ذو عزم واستقامة لا مزيد عليها . وكان قد قام بحماية المسيحيين اثناء حوادث الشغب فى طنطا وكذلك فى المذابح الأخرى التى جرت فى مديرية الغربية فى عهد مديرها ابراهيم باشا أدهم صنيعة الخديو الذى عين عقب ضرب الاسكندرية . والرجل (المنشاوى) على استعداد للادلاء بالشهادة ضد الخديو وعملائه امام اى قضاء أو أى محكمة - حتى فى مصر - ولا يخشى فى ذلك أى شىء ولا يهدده أى خطر . وقد كان فى نيته أن يكتب باختياره خطابا الى المستر بلنت ليعبر له عن استعداده ورغبته الحارة فى وضع مايعرفه من أمور امام الانجليز وكل ذى ميل الى العدالة والمساواة . وهو مقيم معنا الآن فى بيروت . واذا شئتم استدعاءه فلن يتأخر .

أرجو ابلاغ تحياتى الى المستر بلنت ونقل جزيل الشكر اليه على همته واعماله الجليلة باسمى وباسم كل مصرى - وكل انجليزى ايضا . كما ارجو ابلاغ تحيتى الى السيد صابونجى شملك الله برعايته .

محمد عبده

من بلنت الى محمد عبده
عن الاصل الانجليزى

لندن فى ابريل ١٨٨٤

الى صديقى العزيز النبيل العالم محمد عبده ، شهيد الحرية ، أدام الله علمه .

أسعدنى كثيرا خطابك ، الذى فرغت حرمنا الآن من ترجمته لى كاملا ، فيما عدا ماذكرته من أنك لا تستطيع الحضور بعد الى انجلترا ، ولكنى أرسل لك مع هذا ماتحتاجه فى رحلتك من مال راجيا أن تفيدنى بوصوله . وقد كتبت منذ أربعة أيام الى السيد صنوع ورويت له شيئا عن حالة الرأى هنا . ثم كتبت بعدها رسالة ستنشر فى صحيفة « التايمز » غدا أو يوم الأربعاء . واقترحت فيها حلا للمصاعب والعقبات الراهنة فى مصر . وأرجو أن يتفق ذلك مع رأيك ، لأنى اقترح فيها أن تعرض المسألة المصرية على مؤتمر أوربى ، وأن ينسحب الجيش الانجليزى من البلاد ، وأن توضع مصر تحت الحماية المشتركة من جانب الدول الكبرى ، وبذلك تحكم نفسها وفق ارادتها .

وأقترح أيضا أن يعقد الصلح مع المهدى ، وأن يستدعى الجنرال جوردون من الخرطوم ـ ولم أنس أن أوصى بالغاء مراسيم النفى للوطنيين المصريين . أما فيما يتعلق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف آرائى حولها لأنها نشرت بالكتاب الذى ألفته منذ ثلاث سنوات وأقمته على توجيهاتك وآرائك المفيدة التى نقلها الى صديقنا العزيز محمد خليل [1] (سلمه الله) وأما فيما

---

(١) تلميذ محمد عبده فى مصر الذى كان أول من علم بلنت العربية وقد عرفه ـ قبل ان يعرف محمد عبده ـ عن طريق أحد موظفى الحكومة المصرية من الانجليز .. وروى عنه بعد ذلك انه مات بالكوليرا سنة ١٨٨٣.

يتعلق بمسلمى الهند فهذه هى آرائى التى أرجو أن تنقلها الى الأمير النبيل السيد جمال الدين (الذى أبعث اليه أيضا بتحياتى) حتى يطلع عليها وينقلها الى النواب رسول يار خان وعلماء حيدر أباد الذين أحطتهم علما بأفكارى ، حين تحدثت بصراحة الى جميع مسلمى الهند الذين قابلتهم ، وعلى ذلك فها هى أرائى المتعلقة بالهند .

بناء على المبادىء التى أعتنقها فى شئون السياسة فانى أرجو أن تتأسس الحرية والحكم الذاتى فى كل مكان ، فى الهند وغيرها من أقطار العالم الواقعة الآن فى ظل التبعية . وليست حقيقة أننى ولدت انجليزيا تجعلنى متعصبا لا أرجو تحقيق مزية أخرى للهنود . ولست أتردد فى الموافقة على أى خطة حكيمة من شأنها أن تسرع بتحقيق حريتهم . وقد اقنعتنى رحلتى الى الهند ، فى الوقت نفسه ، بأن شعب ذلك البلد ليس متحدا بعد على نحو يمكنه من تكوين أمة مستقلة لا تحميها قوة خارجية ما . ولو كان جميع الهنود على مذهب واحد ولغة واحدة وجنس واحد كما هى الحال فى مصر ، لقلت لهم مثلما قلت لكم : باسم الله تقدموا ولا تخشوا شيئا . ولكن حالهم ليست هكذا . فإنى أرى أنهم قد يحررون أنفسهم من السيطرة الانجليزية التى يمقتونها . ولكنهم ليسوا على استعداد بعد أن يحلوا محل السيطرة شيئا ينفعهم . وارى أن عليهم التعلم والتأهل للحكم الذاتى ، والا ضاع جهدهم أدراج الرياح . ولهذا السبب قلت لهم ، وأقولها مرة أخرى ، أن اصبروا بضع سنوات ، وخططوا لتربيتكم السياسية فى ظل حكومة تسمح لكم بامتياز التربية هذا . وبعدها ستأتى اللحظة التى تقدرون فيها على الاتحاد وتكوين الأمة .

إنى أقول هذا للمسلمين بخاصة ، لأنهم ليسوا الا واحداً الى خمسة من سكان الهند . وهم الآن أقل من الهندوس والبرسيس فى التعليم . ومن ثمة يمكن أن تسوء حالهم فى ظل الحكم الوطنى اكثر

مما تسوء فى ظل الحكم الانجليزى . وعندما اقترحت عليهم تأسيس جامعة كنت أرجو أولا أن أتيح لهمْ مركزاً للوحدة من شأنه أن يضيف الى قوتهم ، لأن القوة فى الاتحاد ـ وكنت أرجو ثانيا أن أعدهم للعب الدور الكامل فى احياء بلدهم . ولكنهم اليوم بابتعادهم عن الشئون العامة والبقاء على جعلهم بالانجليزية ، التى هى اللغة الرسمية ، انما يضعون أنفسهم فى وضع أدنى وأضعف ازاء اجناس الهند وأديانها الأخرى . ولذلك أرجو أن يقوم السيد العالم (الأفغانى) بتشجيع جماعة حيدر أباد ـ حين يكتب اليهم ـ على التقدم فى طريق هذا العمل الجليل وعدم ادخار الجهد فى الاتجاه الذى أوضحته .

أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدنى أن أبذل كل مابوسعى لمعاونتكم . ولكنى أنصحكم بكل قواى أن تلزموا الاعتدال فى لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانجليزية ـ لا بمعنى أن أى شىء تقولونه حول تصرفاتها فى مصر يمكن أن يتجاوز غضبى ونفاد صبرى ـ وانما لأنى أرى فى صداقة انجلترا خير أمل للاسلام . وصدقنى أنه بالرغم من سلوك انجلترا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فمازال بين الانجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق أكثر مما نجد بين بقية الأوربيين أجمعين . فليس من الممكن أن تثق فى أن يعاملك الفرنسيون أو الروس أو النمسويون أو الايطاليون باخلاص كأصدقاء ـ ولأن الانجليز أقوى فى البحر من جميع الآخرين فلابد من التعويل عليهم دائما ، وضمان صداقتهم قدر الامكان . وهذا أمر لم يتحقق بعد . ويؤسفنى أن أرى فى يوم من الأيام شرخا لا يلتئم بين حزب الاصلاح فى الاسلام وبين الشعب الانجليزى ، ففكروا فى هذا الأمر مليا . وقد كانت انجلترا صديق الاسلام طوال قرون ، وانى لأجد بين الانجليز الآن جد كثيرين ممن يأسفون على تغير هذه السياسة ويدينون أى تغير فيها .

وها أنت ترى أننى تحدثت بصراحة وسجلت كل مافى قلبى .

صديقك فى السراء والضراء

ويلفرد سكاون بلنت

من محمد عبده الى بلنت

(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

باريس فى ١١ ابريل ١٨٨٤ .

الى صاحب السعادة صديقى العزيز ، صديق المسلمين ومعين العرب ، والمدافع عن الأمة المصرية ، الخ .

بعد التحيات اليك والى المهذبة الفاضلة الليدى آن بلنت ـ وصلتنا رسالتك بالأمس ، ولما قرأناها وجدناها مفعمة بالحكمة والنصائح النافعة للمسلمين ، وأكدت ثقتنا فيك كصديق لهم .

يقدم لك التحية السيد جمال الدين . وسوف يكتب ، على وجه اليقين ، الى أهل الهند فى حيدر أباد وغيرها ، وينصحهم بالتزام الهدوء ، ويسكن ألبابهم على نحو ما اقترحت ، ويبسط لهم الفكرة التى صغتها بوضوح فى رسالتك ، ويضع أمامهم التفاصيل بأفضل اسلوب وابسطه .

وأما بعد ، فقد اغتبطنا للنصيحة التى تكرمت بها علينا ووعدك بمساعدة صحيفتنا (العروة الوثقى) وقد كان هذا املنا فيك . ومامن شك فى أن الله عز وجل قد خلقك لفعل الخير ومساعدة قضية الحق والدفاع عن المظلومين . وهذا هو الوجه الحقيقى لصحيفتنا ، فضلا عن خدمة تلك الأفكار التى تشقى من أجلها ، أعنى الحفاظ على استقلال الأمم الشرقية ونصح الحكومة الانجليزية حتى تتخلى عن مسلكها الذى يشقى عقول المسلمين ، وتسرع بمد يد الصداقة اليهم ، وبذلك تضمن وقوفهم فى صفها . ونحن فى الحقيقة لا نحب تلك الدول الكبرى الأخرى التى أشرت اليها فى رسالتك ، ولا نحن نسير فى ركاب سياسة أى منها .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

صديقك المخلص

محمد عبده

من جمال الدين الى بلنت
(عن الترجمة الانجليزية للأصل العربى)

باريس فى ١٢ مايو ١٨٨٥

بعد التحيات ، الخ .

أعرفك بأنى لست وحدى الشاكر لجهودك المرموقة التى أجبرت الحكومة (الانجليزية) على اجلاء قواتها عن السودان . بل أؤكد لك أن جميع المسلمين ، ولا سيما العرب ، سيشكرونك على صنيعك هذا أبد الدهر ، وسينقشون اسمك على لوحات مرصعة بالأحجار الكريمة وألقاب المجد والشرف لقاء حماسك وشجاعتك .

غير أن ثمة شيئا واحدا مازال عليك أن تصنعه ، وهو أن تقول للحكومة : كيف تتركون هذا البلد (السودان) هكذا دون معاهدة مع المهدى ، وعلى من ستقع تبعة صد هجمات المهدى ؟ كيف يمكن للحكومة أيضا أن تدع طرق التجارة مغلقة ؟ أم هى تريد القضاء على التجارة ؟ أليس من الواجب على الحكومة حين تقرر الجلاء عن السودان أن ترسل رجلا مسلما موثوقا فيه الى المهدى حتى يتباحث معه فى أمر التوصل الى صلح يحمى مصر من هجماته ويغلق أبواب النزاع ويعيد فتح ابواب التجارة .

أعتقد أن هذه المسألة لو عرضت على البرلمان لاجتمع الرأى بالموافقة عليها .

وأرى أيضا أن هذا أمر ميسور ، حتى بغض النظر عما تقوم به . فحين ينتهى حساب المسألة لن يحتاج منكم الا إكمالها . ولكن لا يمكن الوصول الى خاتمة نهائية للموقف كله بدون معاهدة صلح مع المهدى .

هذا مارأيت من الضرورى أن أنقله اليك .

مع تحياتى اليك والى حرمك

صديقك

جمال الدين الحسينى الأفغانى

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب : ٧٦٤٧ ـ ١٩٨٥

الترقيم الدولى :ISBN٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٢٠٣ ـX

مع الباعة

تقرأ فيه :

● رحلة العائلة المقدسة إلى مصر : البابا شنودة الثالث .
● مظاهر الاستمرارية في الفن المصرى عبر التاريخ : د . صبرى منصور .
● ندوة الهلال الشعرية : يشارك فيها سبعة شعراء .
● هل مات الشعر فى مصر ؟ : د . سيد ابراهيم
● الزيدية وظلها على التاريخ والجغرافيا : فهمى هويدى
● د . جمال حمدان العاشق العظيم لمصر : محمد أمين العالم
● الدولة العثمانية دولة مفترى عليها : فتحى رضوان
● كتاب جديد قديم «ما هنالك»
كيف تتداعى وتنهار الدول : مصطفى نبيل
● سياسات عملية السلام العربى الاسرائيلى : تحسين بشير
● مهرجان السينما الحائر بين الفوضى والاستقرار : مصطفى درويش
● أدباء تصرعهم المخدرات : د . محمد رجب البيومى
● العقاد بين الكفر والايمان : محمد سيد الكيلانى
● محنة الاقتصاد والاقتصاديين فى مصر : د . حازم الببلاوى .
● مع القصة والشعر والأبواب الثابتة

رئيس مجلس الادارة : مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير : مصطفى نبيل

الثمن ٥٠ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع فى الخارج للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :ـ

سوريا ١٤٠٠ ق . س . لبنان ١٤٠٠ ق . ل . الاردن ٦٠٠ فلس . الكويت ٩٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلس . السعودية ٧ ريالات . تونس ١٥٠٠ مليم . الخليج ١٢٠٠ فلس . الصومال ١٣٠ بنى . لاجوس ١٢٠ بنى . عدن ١٤٤ سنتا . لندن ١٥٠ سنتا . اثينا ٢٠٠ دراخمه . كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠ سنت . استراليا ٦٠٠ سنت . السودان ٢٥٠ ق . سودانى . المغرب ١٥٠٠ فرنك . غزة والضفة ٧٥ سنتا . داكار ١٠٠٠ فرنك . اليمن الشمالية ١٥ ريالا . ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب جوانب ووقائع هامة فى حياة كل من جمال الدين الأفغانى والاستاذ محمد عبده ، وهى جوانب لم تظهر تفاصيلها بالعربية من قبل .

سجلها الكاتب الانجليزى ويلفرد بلنت فى أربعة من مؤلفاته الضخمة ، ومع أن كتابه عن إحتلال الانجليز لمصر قد ترجم الى اللغة العربية ونال إهتماما كبيراً ، إلا أن كتبه الأخرى لم تلق العناية الكافية ، ولعل ذلك لأنها مليئة بأحداث وشخصيات أخرى انجليزية وهندية ..

وهذا الجزء من تاريخ الأفغانى وعبده بالغ الأهمية ، لايمكن كتابة تاريخهما وفهم حياتهما ونضالهما دون الرجوع الى هذه المادة التى تناثرت فى كتب بلنت .

وبلنت كان من أوائل البريطانيين الذي ناصروا الحركة الوطنية في مصر والشرق ، وعرف رجالها معرفة شخصية ، وكان بيته مزاراً لكثير من الشخصيات التى ارتبطت بهذه الحركة ، فعلاوة على الأفغانى وعبده ، كان يتردد عليه الزعيم أحمد عرابى والبارودى وعبدالله النديم وغيرهم .

وهو فى هذا الجزء أقرب الى المؤرخين العرب القدماء فى تسجيله للتاريخ . فهو يعتمد على اليوميات يسجلها أولاً بأول .

٧٥ قرشاً